

Riyadh Hamza

المثال والتحول

في شعر

المتنبي

وحياته

د. جلال الخياط

دار الأرائك العربي

بيروت، لبنان



المثال والتحوّل في شعر
المتنبي وحياته

المثال والتحول في شعر

المتنبي

وحياته

د. جلال الخياط



دار الرايد العربي

بيروت ، لبنان

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٩٨٧هـ - ١٤٠٧م

أجازت طبعه دائرة الرقابة العامة
ودائرة الشؤون الثقافية العامة
بوزارة الثقافة والاعلام العراقية

دار الراشد العربي - بيروت - لبنان
ص.ب: ٦٥٨٥ - تلکسن: ٤٣٤٩٩ LE راشد

مقدمة

ليتم التواصل الزمني والفكري بين الاجيال المتعاقبة، تتمثل خلاصة جيدة لأعمال الماضين وما أضفوا على التجربة البشرية من اسهام وانجاز وتطوير، وندرس ونبحث ونلح في التأمل، ونعرف ونهتدي ونسير. وأظن أن أشعار المتنبي وأحداث زمانه ما زالت مادة لموضوعات كثيرة لم تستوعبها الدراسات التقليدية بعد، وان أكد كتاب في قضايا معينة معروفة، افتقرت احيانا الى التعليل والاحاطة بالاسباب والبواعث، وادراك ما دفع الشاعر الى اتخاذ هذا الموقف او ذاك.

والمتنبي ظاهرة متكاملة في عالم الشعر العربي، لها ابعاد وأطر خاصة ومدى يتطلع الى اضاءة وتوضيح، يزخر بفيض لا ينتهي من قضايا أدبية، تبدو جديدة، رغم ما ألف وكتب عن الشاعر، ونعجب أنها لم تحظ، من قبل، بانتباه وعناية. وظل شعراء كبار عبر العصور، بمواهبهم العالية وابداعهم المتجدد مع الزمن، رجالاً نظموا الشعر! ولكن المتنبي، ظاهرة، لا يمثله أحد بتفرده وتميزه، يتحد شعره وتاريخ حياته، اتحاداً غريباً، يصعب ان نرى قريباً له، ينضح أصاله فيما ينظم ويصدر من أفعال، وتصح لديه الحقيقة النقدية بضرورة دراسة الشعر من خلال حياة الشاعر وموقفه من عصره.

ويجدد التكامل أشعاره وحياته بفصول أربعة، الاول: نشأته وصباه

والغموض الذي يحيط به ورحلته الى البادية، واتصاله بالاعراب، وسجنه وعلاقته ببعض المدوحين. والثاني: لقاءه سيف الدولة، واشتراكه في الحروب والغزوات، وظهور طبقة من الحساد والمناوئين، وتحديه، فيما بعد، للامير ومجلسه، وخروجه من حلب. والثالث: ذهابه الى مصر بحثاً عن سلطة وولاية، وخيبته هناك، وهروبه على نحو يزري بقصص المغامرات. والرابع: يبدأ بنجاته من جند كافور وعودته الى بغداد، وما جرى له من أحداث مع الشعراء المناوئين ورجال العصر الذين رفض ان يمدحهم، وجولته في فارس، ثم عودته، ومقتله في طريقه الى الكوفة. أحداث تتأسك باجزائها الصغيرة والكبيرة، وتهميء مادة مسرحية جيدة لوقائع عصر مثير.

وتتميز موضوعات يكتبها الباحثون عن المتنبي وأشعاره بقدرتها الهائلة على التبويب والتحديد والانفصال الشكلي عن الاطار العام، بالرغم من العلاقة القائمة. ولكنها تصعب في الاهتداء اليها مؤشراً لفهم الشاعر وعصره، ولذا يبقى المتنبي، مع البحوث الكثيرة التي كتبت عنه، مجهولاً في بعض قضاياها، ومصدراً ثراً يمد الدارسين بموضوعات لا تنضب: مطالع قصائده. حبه للمجد. نسبه. كبرياؤه وطموحه. آراؤه الدينية والسياسية. مديحه. رثاؤه. هجاؤه. مزجه بين القديم والحديث في شعره. موقفه من الحياة والمرأة والفكر والانسان. مفهومه للزمن. حساده. ما أغفله الشراح من قصائده. اسلوبه. شاعريته الخ...

ويحاول هذا الكتاب أن يلم بجوانب من المتنبي - الظاهرة: تأثيره الواضح في النقد الأدبي، وقضية الحسد التي تفوق ما يتخيل الدارسون، وأي باحث يعرف ان حساداً للمتنبي كثيرين رافقوه في كل مكان، ولكن أن يقرر اولئك الحساد مسير شاعريته ويسدون عليه سبل طموحه ومواهبه وحركاته، ويكون تأثيرهم فيه شاملاً تاماً، ويمتزجون بأحداث حياته اليومية وينتهبون أحلامه وكوابيسه، ويشوهون عواطفه واحاسيسه، ويلاحقونه حتى مقتله، وما بعد مقتله! فمسألة تستحق وقفة وبحثاً، واذا

بها تتكامل تكاملاً درامياً مكثفاً، وكأنها من فعل خيال مؤلف مسرحي معين، وليست واقع شاعر ومأساته.

وقضية الحكمة عنده وما شاع عنه بأنه شاعر حكم تتطلب درساً واناة، لان المتنبى ابتدع شكلاً من الرمز في الحكمة للتعبير عن معان لا يستطيع ان يؤديها أداءً مباشراً، فهو ليس بشاعر حكم مجردة ولكنه صاحب اسلوب خاص في الحكمة، وان أردنا وأصررنا ان يكون شاعراً حكيماً ففي موقفه من الزمن وراثته للانسان وصراعه مع الدهر.

وشغف المتنبى بالمعارك والغزوات والامجاد والبطولة، واتصافه بنزعة حربية تسيطر على ما ينظم من اشعار، يستدعي بحثاً عن اقتران الشعر بالفروسية عنده، وكيف يصح شاعر كبير داعية حرب.

وتقوم قضية اخرى غريبة تتمثل في العلاقة بينه وبين كافور، واتخاذ الشعر وسيلة للوصول الى الحكم، ومشاركة الممدوح السلطة، وتأثير الشعر في التاريخ حين يسدل ستاراً كثيفاً على حقبة تحول فيها عبد مملوك الى حاكم مطلق.

ولا بد ان نعرف شيئاً عن موقف المتنبى من المرأة ودورها في حياته، وهل يصح ما تناوله الباحثون بأنه بعيد عنها، زاهد فيها، تعشق المجد وأحب القتال؟

وانفراد الشاعر، في شخصيته وآماله ومواهبه وردود أفعاله، أورثه الاغتراب والتوحد، وتفصح أشعاره عن الانفصال الذي تم بينه وبين مجتمعه وممدوحيه وأحداث زمانه، وهو يضع لنفسه دوماً مثلاً، يتحول عنه أواليه، ففي مطلع شبابه يريد أن يحقق مجدا ورفعة باشاعة اهداف معينة ويلتف حوله الاعراب، ويسجن، فيترك ذلك. ويتخذ من سيف الدولة مثلاً للرجولة والفروسية والمروءة، فيحوله حساده عنه، ويدرج في أشعاره خلاصة تجاربه فيحيل الشراح عالمه الفكري الخاص المتكامل أحياناً

مفردة او انصاف أبيات، يسمونها حكماً، ويؤمل من كافور سلطة ويفشل، ويصبح السيف رمزا للقوة والبأس، ولكن لا يستطيع به وحده ان يغزو العالم. ويعيش الشاعر محنته.

أي جانب من جوانب ابي الطيب يمكن أن ينتهي بانه ذاتي وغريب وخاص بصاحبه. واعترضتني في هذا الكتاب مشكلة النص الشعري، وبالرغم من مصادر ومراجع اشرت اليها، تبقى الاشعار في الطليعة، ولذا كثر التمثل بها وبدأ يطغى على الكتاب، فأضطرت ان اقلل منه، مع اهميته، ليم الانسجام بين النص والبحث، ووددت لو لم أفعل، وان تأخذ الاشعار الكثيرة مكانها.

جلال الخياط

كلية الاداب - بغداد

المتني والنقد الأدبي

تنتهي بالمتني قضايا نقدية، وتبدأ أخرى، وكان لأصالته وتميزه وأسلوبه ومواقفه واعتداده بنفسه وآرائه السياسية والشخصية تأثير في النقد الأدبي.

وتمثلت في ديوانه خلاصة للتراث العربي في الشعر والنقد منذ عصور أوغلت في القدم وسبقت الإسلام بما لا نستطيع أن نحده من سنين، وحين أصبح المتني وبعده أبو العلاء من أعلام المكانة السامية التي حظي بها الأدب العربي في القرن الرابع الهجري ومطالع ما يليه، تدعمها دراسات وبحوث ومؤلفات جديدة، كاد الشعر يضرب في مجالات من الريادة واسعة وأساليب في القول غير مألوفة وعلاقات بين الألفاظ جديدة ودالة، إلا ان بداية انحسار المظاهر الحضارية والضعف الذي اعترى الدولة العباسية جعل تلك الحركة، والمتني صاحبها، تتعثر في مجال تطورها الطبيعي، والا كان يصح لدنيا في عالم الشعر والنقد أن نقول: عصر ما قبل المتني وعصر ما بعد المتني.

كان ابو الطيب ظاهرة وعلامة ومنطلقاً جديداً للنقد الأدبي وحداً فاصلاً بين النظريات النقدية السابقة وما استجد في عالم النقد من آراء وبحوث.

ولم يقصد المتني ان يكون مؤثراً في عملية النقد الأدبي، على نحو

مباشر، إلا أن شعره أسهم في ذلك وليس للشاعر حدود في إبداعه وقدرته على التطوير والتكامل النقدي وفاعلية المسيرة الأدبية.

ظهر المتنبي وذاع شعره فانتهت قضية نقدية دار حولها نقاش طويل ولغظ وجدل في تقسيم الشعر متكلفاً ومطبوعاً، وإذا بديوانه يتعدى حدود ذلك التقسيم المفتعل في الحكم على الشعر بطريقة نظمه لا بقيمه الجمالية وعمقه وتأثيره في القارئ، فالمتنبي جمع، بمفهوم مقني الشعر الى متكلف ومطبوع، بين النوعين وحين وقف النقد منه وقفة موضوعية ألفاه يلغي هذه القضية بقصائد نأت وبعدت ورفضت اي تقسيم مصطنع.

واستمر النقاش طويلاً: كيف يبدأ الشاعر قصيدته؟ وهل له ان يفتتحها بغير الطلل؟ وهل المقدمة الطللية تقليد لا مفر للشاعر ان يقتفي الجاهليين في اتباعه؟

ولم يقل أحد إن الجاهليين أنفسهم لم يصروا على انتهاج هذا التقليد لأن مئات من القصائد الجاهلية لم تبدأ بالطلل، ومنها معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا
ولا تبقي خمور الاندرينا

حتى إذا ما دعا ابو نواس الى ان يعبر الشاعر عن أحاسيسه الحقيقية وألا يكون متبعاً أو معبراً عن تجربة لم يعرفها في حياته، ثار عليه نقاد ودعوا الى ضرورة افتـاح القصيدة بالطلل، حتى ظهر المتنبي فأبطل أي نقاش حول المسألة وكان في مطالع قصائده غير متبع لتقديم أو جديد، وترك لكل قصيدة من قصائده ان تبدأ البداية المناسبة لها، ومن مطالعه:

انما التهئاتُ للأكفاء
ولمن يدني من البعداء

★ ★ ★

جللاً كما بي فليك التبريحُ
أغذاءً ذا الرشأ الأغنِ الشيحُ

★ ★ ★

أحاداً أم سداسٍ في أحادٍ
ليلتُننا المنسوطَةُ بالتنادِ

★ ★ ★

أرى ذلك القربَ صار ازورارا
وصار طویلُ السلامِ اختصارا

★ ★ ★

نعُدُّ المشرفيةَ والعوالي
وتقتلنا المنسُونُ بلا قتالِ

★ ★ ★

ذي المعالي فليعلونُ من تعالی
هكذا هكذا والآ فلا لا

★ ★ ★

كدعواك كلُّ يدعي صحةَ العقلِ
ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهلِ

★ ★ ★

ايمن أزمعت ايها الهامُ
نحن نبتُ الربى واننت الغمامُ

★ ★ ★

اذا كان مدحٌ فالنسبُ المقدمُ
أكلٌ فصيحٍ قال شعراً متيماً

★ ★ ★

إذا غامرت في شرف مـروم
فلا تقنع بما دون النجوم

★ ★ ★

فؤاد ما تسليه المدام
وعمر مثل ما تهب اللثام

ولم يقترن الشاعر المتنبي، لتميزه وتفردده وتكوينه الخاص، بأي شاعر آخر، وما أكثر الشعراء الذين زاحموه، فأوقف، دون ان يقصد ايضاً، عودة ما دار عن البحري واي تمام من موازنات ومعادلات.

وما عاد للخصومة الشديدة التي تنشأ بالمقارونة بين شاعرين او اكثر مثلما نجد في العصر الأموي بين جرير والفرزدق، شأن في القرن الرابع لأن المتنبي لم يدع لأحد ان يكون نداءً له فينشغل الناس، على عاداتهم، بأي شعر، كان وحيد زمانه في الشعر، ولأن النقد الأدبي الجيد لا يلجأ الى اسماء التفضيل في الحكم على المبدعين الحقيقيين بأحسن وأروع أو أتعس وأردأ، فتلك الاسماء صفات دائمة، وهي الى تعميم الاحكام أقرب منها الى الرأي الموضوعي الهادىء المحدد ولأن قيامها على أسس ثابتة، غير انطابعية شخصية ضرب من المحال.

وبروز انسان متميز في مجال ما لا يعني احتكاراً لعالم الابداع، وكثيراً ما يبتهج هواة الخصومة والنقاش بوجوده ليسدوا الطريق امام مبدعين جدد وكأن مجالات الابتكار لا يمكنها ان تضم جموعاً من الساعين الى تجاوز القدرات البشرية في التجدد الدائم، وهذا ما أثبتته المتنبي حين استطاع ان يتفوق على كثير من الماضين. الا انه أيضاً اصبح ذريعة لإسقاط من حاول ان يكون له مكان تحت شمس الشعر في عصره، وما بعد عصره، دون ان ننحو باللائمة عليه فلم يكن له في هذا وذاك يد أو تصميم.

وانهى المتنبي قضية تقسيم الشعراء طبقاتٍ ومراتب تبعاً لمقاييس تحاول

ان تكون موضوعية او لنقد انطباعي - تأثري قائم على ذوق الناقد ومزاجه، فلو حاول ابن سلام آخرُ في القرن الرابع او الخامس ان يضع الشعراء في مراتب فيكون المتنبي في الأولى فمن يضع في الثانية والثالثة.. الخ، فالبون بينه وبين معاصريه شاسع واسع، فضمرت قضية تقسيم الشعراء طبقات وما عاد لها مكان واضح في النقد بعد المتنبي، ولكل شاعر عالمه ومذاقه ومزاجه ومواهبه ومدى ما تصل اليه قدراته.

وتضائل مجال الصراع بين القديم والجديد، والتعصب لهذا وذاك والغاء الحاضر للماضي او طغيان الماضي على الحاضر، وأي صراع يمكن ان يبقى؟ وقد مزج المتنبي في شعره بين القديم والجديد واستطاع ان يفرض اسلوباً خاصاً هو خلاصة للقديم والجديد، ولم يجرؤ أحد ان يقول: لو أدرك المتنبي يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه احداً. فالحكم على الشاعر وابداعه بيوم مولده معيار نقدي ساذج ومرفوض. ولم يُجابه المتنبي بما عُدَّ ضعفاً لدى أي تمام حين قيل له: يا فتى ما أشد ما تنكئ على نفسك، وكأن الاتباع والتقليد من شروط الابداع، فصار اتكاء المتنبي على نفسه أحد أسرار عبقريته.

هذا الصراع بين القديم والجديد، وإن قدم دراسات وآراء أثارت وأفادت، كان هدرًا حقيقياً لطاقت الشعراء شلَّ حقباً طويلة من قدرات المبدعين والنقاد فألغاه المتنبي، وارثاً شرعياً حقيقياً للتراث الشعري، بجديده وقديمه، وكان تاريخ الشعر العربي، منذ أن وقف الشاعر الجاهلي واستوقف وبكى واستبكى، قد تبلور فيه.

ولكن لا بد للنقاد والقراء من صراع ونقاش وجدل فقدم المتنبي شعره بديلاً فقامت الخصومات حوله وملاً الدنيا وشغل الناس:

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

وأزرى المتنبي بمسيرة النقد القاعدي ومحاولة إخضاعه للمقاييس الثابتة والتقنين كالبلاغة. ولو نجح النقاد في تعقيد النقد لانحسر وتقلص، فما الأسس التي يمكن ان تستقر للابداع والخلق، وليس للعبقريات قمم وأبعاد محدودة او محطات أخيرة لا تجاوز بعدها؟

وحرار النقاد المؤيدون والمناوئون بأية قاعدة يمكن ان يبرهنوا على شاعرية ابي الطيب الفذة، او ينكروا له اي فضل، فتخطبوا في مدح وقدح وتطرفوا في هذا وذاك، حتى ان خصوماً غيروا من أشعاره وكلماته لينعوا عليه اخطاء متوهمة.

وأسهم المتنبي في اتساع مجالات النقد وظهور قضايا جديدة فيه، وبرز منحى رائع يُعنى بالأساليب، ولا سيما فيما تفرد به المتنبي من موقف يازاء اللغة، وما أتى به من جملة شعرية أدت الى شهرة وصيت وسطوة، فظهرت دراسات الجرجاني وابن الأثير وغيرهما في النقد اللغوي وفي مباحث الاسلوب نتيجة شارك المتنبي بقسط فيها، وكانت تلك الدراسات وغيرها خلاصة للنقد الأدبي في عصوره السابقة وبعد أن شاعت البحوث التي جعلت الاعجاز محورها.

وتثبت مع المتنبي قضية أخرى، قبل ظهور سانت بيف بمئات السنين، فالنقد الأدبي كان يُعنى، في كثير من الاحيان، بالشعر وحده دون الشاعر، وأصبح لدى المتنبي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالشاعر وأفكاره ونفسيته وأحداث زمانه، ودارت رحي النقد عن الشعر ممتزجاً بصاحبه، منطلقاً من تجاربه، مقترناً بعصره، متأثراً بعوامل سياسية واجتماعية وبيئية وغيرها.

ووحدة الموضوع في القصيدة من قضايا النقد التي أنهاها المتنبي، فالتقاليد الشعرية قبل الاسلام كانت تميل الى ان القصيدة ينبغي ان تكون متعددة الموضوعات، ولكن هذا لا يمنع ان تأتي قصائد بموضوع واحد، الا ان نقاداً، ومنهم ابن سلام، فضلوا الشاعر الذي تختلف موضوعاته

الشعرية، والقصيدة التي تضم اكثر من موضوع، فجاء المتنبي وأثبت ان الابداع الشعري، سواء انطوت القصيدة على موضوع واحد او موضوعات شتى، له من صاحبه ما يجمع شتاته كالألوان المتباينة في اللوحة التي تتداخل لتصبح اجزاء من وحدة تلك اللوحة وعالمها الخاص وجوها المتماك.

أليس للمتنبي، اذًا، دور كبير في النقد الأدبي، ما زال يتطلع الى اضاءة ودراسات.

المتني وحاسدوه

لم يثر شاعر حساداً ومناوئين ونقاداً ومعجبين، في عصره وما بعد عصره، كما فعل ابو الطيب المتني، مالىء الدنيا وشاغل الناس، فخلف ثروة أدبية تزداد مع الايام، وتضارباً في الآراء وتناقضاً في الاحكام، لم يشهد الادب العربي مثيلاً لهما في أطواره المختلفة، ولعل الخصومة التي رافقت المتني، والحسد احد اسبابها، من أكبر قضايا الشعر في العصر العباسي. ولا تنتهي مهمة الشاعر بالنظم، ولكن بدفع الآخرين الى تأطير انتاجه بالنقد، لحيويته وابداعه، فيسهل في تطوير الاداء الشعري والنقدي. وكان المتني في هذا وذاك ظاهرة ودليلاً وشاهد عصر. ووراء عالم المتني الادبي بواعث كثيرة، في طبيعتها اصلته وموهبته، ومزجه بين القديم والحديث، وتميزه من اقرانه الشعراء، بأسلوب ومعانٍ واتجاه ونوازع، فأخل ذكرهم وأوقع فيهم الحسد والغيرة والمرارة واللوعة.

وللمتني قدرة على الاثارة نادرة فيما ينظم من شعر وما يفصح من آراء وما يصدر من مواقف، وفي حياته المليئة بالحركة والعنفوان والتنقل والترحال وفي افكاره ذات التوقيت الحاسم السريع، وفي طموحه وآماله الكبيرة وشغفه العجيب بمجد لم تدركه طقوس ملوك العصر. ولو جاز لنا ان نقرنه بالمعري امتداداً مكماً وامتماً نهض بالقرن الرابع الهجري الى المكانة الادبية التي يتبوأها بين العصور، لعرفنا أية موهبة تمتع بها شاعرنا،

يصعب تعيين أبعادها، ويسهل الايحاء الى قضايا كثيرة حدثت من آفاقها، وضاءت من قدراتها، وضلت من انجازاتها، كالمدائح وما شغلت من حياة الشاعر ووجدانه وهدرت من طاقاته، وما تضمنته من صفات ثابتة للمدوحيين مهما اجاد الشاعر في سردها، تظل ذات قوالب محدودة، تفتقر الى التشابك والصراع والعمق والضرورة والتطور^(١)، والحساد الذين كان لهم تأثير عظيم في حياته وفي شعره وعلاقاته مع المدوحيين. فهل نستطيع ان نبرر اهتمام شاعرنا بأولئك الحساد؟ وان نحيط بمدى تأثيرهم فيه وقدرتهم على توجيه موهبته وردود افعاله وهمومه وتطلعاته؟

رافق الحساد المنتهي منذ صباه ومطالع حياته الشعرية الاولى^(٢)، يصاحبونه في كل مكان ولا يفارقونه ايما حل، وشكلوا عصبه قوية متماسكة في حلب ايام سيف الدولة، الرجل المرموق بين حكام عصره: « وكان - رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأواه - غزة الزمان، وعماد الإسلام، ومن به سداد الثغور، وسداد الامور »^(٣)، فخليفة بغداد انحسرت عنه أبهة أسلافه، وانتهب الدولة العباسية حكام وملوك، عرب وعجم، شغلتهم خصومات وغزوات ومطامع وصبوات، وحلات الروم تترى على الحدود، فيتصدى لها سيف الدولة بشجاعة وقدرة حربية عالية^(٤).

وما عادت للشعر تلك السطوة العباسية المعروفة، ولكن اللقاء بين الشاعر والامير ارجع له الاشراق السابقة ومثل علامة مضيئة في القرن الرابع الهجري، بحدود تقاليد الشعرية المعهودة، نمت وتطورت ثم انتهت، أضرت بها الحساد، وكان لها ان تستمر فتقدم أمثلة شعرية أكثر مما صنع المنتهي في مدائحه وسيفياته ووصفه للمعارك والغزوات، ولو لم يكن المنتهي شاعراً أصيلاً مبدعاً متميزاً، ولو لم يكن سيف الدولة: « ... مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الامال، ومحط الرجال، وموسم الادباء، وخبلة الشعراء... »^(٥)، لما نشأت لديه طبقة من حساد الشاعر واعدائه

انتهت ذلك اللقاء بفراق مأساوي، وبددت قدرات المتنبي عند كافور وغيره، بالرغم من أن سيف الدولة: « كان اديباً شاعراً محباً لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به...»^(٦)، وخلف ذلك الفراق حسرة دائمة ولوعة متقدة، وواقع بالشاعر وقت في عضده، واضناه واتعبه، وعمل على تلاؤم الظروف التي ادت الى مقتله، وهو يدرج في مطلع العقد السادس من عمره. وكانت فاجعة كبيرة مني بها الشعر واصحابه.

حظي ابو الطيب عند سيف الدولة بمكانة سامقة لم يبلغها شاعر عند ممدوح من قبل « ولم يجتمع قط بباب احد الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر»^(٧) ولكن المتنبي اشترط على ممدوحه الا ينشده واقفاً والا يقبل الارض بين يديه^(٨)، لاعتزازه بنفسه ومعرفته بقدراته، وتعاليه وكبريائه، فرضي سيف الدولة ولم يهتم بتقاليد المديح السائدة وأورث الحساد غمّاً فاتهموا المتنبي بالجنون^(٩)، وكان ابو محسد يحصل على ثلاثة الاف دينار سنوياً، وعلى اعطيات وجوائز في مناسبات خاصة: « وأخبرني بعض المولدين ببغداد، وخاله ابو الفتح يتوزر لسيف الدولة: ان سيف الدولة رسم له التوقيع الى ديوان البر بأخراج المال فيما وصل به المتنبي، فخرجت بجمسة وثلاثين ألف دينار في مدة أربع سنوات»^(١٠)، فليس عجباً أن يقتل الحسد الشعراء، وأن يقفوا في طليعة مناوئيه ومبغضيه لانه استلب منهم الشهرة والمجد والعطاء « فخافوه على ارزاقهم»^(١١)، وكان الى هذا وذاك رقيقاً ومصاحباً لسيف الدولة في حله وترحاله، وحروبه وغزواته، يخاطبه خطاب الصديق والحبيب، وهم ينتظرون على الابواب حتى يؤذن لهم بالدخول وتقبيل الارض والانشاد، وقد يمنعون ويحجبون، فكثير حاسدوه وتألّبوا عليه واجتمعوا على الانتقاص منه: « ولم يستطيعوا أن ينظروا في غير حقد الى ما كان يتمتع به المتنبي من حظوة عند سيف الدولة ومن اعتزاز عند المعجبين به، وكان في أخلاق ابي الطيب، بنوع خاص، ما لم يستطيعوا

قبوله. وقد زاده كبيراً ما لاقى من نجاح. ومنذ وصوله عند سيف الدولة، وحتى قبل أن يكون اتباعه حلقة أدبية، اجتمع خصومه في عصبة تكونت ممن كانت تصرفات الشاعر تثيرهم ومن كانوا يخشونه على ما لهم من امتيازات»^(١٢)، و« قيل: ان الخالدين، ابا بكر وأخاه عثمان، قالا لسيف الدولة: انك لتغالي في شعر المتنبي، اقترح علينا ما شئت من قصائده حتى نعمل أجود منها، فدافعها زماناً، ثم كررا عليه، فأعطاهما القصيدة التي مطلعها »:

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي
وللحب ما لم يبق مني وما بقي

فلما أخذها، قال عثمان لآخيه ابي بكر: ما هذه من قصائده الطنانات، فلأي شيء اعطاناها؟ ثم فكرا، فقال أحدهما لصاحبه، والله ما أراد الا هذا البيت:

إذا شاء ان يلهو بلحيفة أحق
أراه غباري ثم قال له الحق

فتركا القصيدة ولم يعاوداه ولم يعمل شيئاً»^(١٣)، ولم يقصد سيف الدولة ذلك البيت وحده وانما البيت الذي يليه أيضاً^(١٤):

وما كمد الحساد شيئاً قصده
ولكنه من يزحم البحر يغرق

وأعرض سيف الدولة عن ابي العباس النامي: « وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة»^(١٥)، فعاتبه فلم يجر جواباً فألح، فقال: انك لا تحسن ان تأتي بمثل قوله:

يعودُ من كلِّ فتحٍ غيرَ مفتخرٍ
وقد أغدَّ اليه غير محتفل

فغض ابو العباس النامي ولم يمدحه بعدها^(١٦)، وكتب رسالة يتعقب فيها أخطاء المتنبي، اشار اليها ابن وكيع في (المنصف)^(١٧)، ولم يجد فيها غير سب المتنبي من غير ايضاح العيب في قوله^(١٨)، وكان النامي قد وجه خطابه الى المتنبي: «واين ذهبت وفي أي ضلالة همت ومن اي قلب جهالة اغترفت؟ هذا النوع الذي اكثر العجب به هو الذي اكثر التعجب منك»^(١٩)، ولكن حسد ابي العباس لم يمنعه من الاعجاب ببعض أبيات المتنبي، قال: كنت اشتهي ان اكون سبته الى معنيين ما سبق اليهما، أما احدهما فقوله^(٢٠):

رماني الدهرُ بالارزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرتُ اذا أصابتنني سهامٌ
تكسرتِ النصالُ على النصالِ

والآخر:

في جحفلٍ ستر العيون غباره
فكأنما يبصرن بالآذانِ
وقيل: ان السري الرفاء، أحد شعراء سيف الدولة، سمع بيت المتنبي:
وخصرٍ تثبتُ الابصارُ فيه
كأن عليه من حدقٍ نطاقا

فقال: «هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون... وحم في الحال حسدا وتحامل الى منزله ومات بعد ثلاثة ايام»^(٢١) وينفي البديعي هذه الرواية، بعد ان اوردها، لان السري استعمل هذا المعنى بقوله^(٢٢):

أحاطت عيونُ العاشقين بخصره
فهن له دون النطاق نطاقُ

ومقتل السري ببيت شعر للمنتبي، ان صح ولم يكن تلفيقاً، ذو دلالة كبيرة على مدى ما يدركه الكتاب من غيرة الشعراء وحسدهم لأبي الطيب الذي تحداهم وأهانهم في أول قصيدة القاها بين يدي سيف الدولة^(٢٣):

غضبتُ له لما رأيت صفاته

بلا واصفٍ والشعرُ تهذي طهاطمة

وكثر الحساد واحكموا الطوق حتى ان أبا فراس قال لسيف الدولة: «ان هذا المتمشّدق كثير الادلال عليك، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد، ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعرا يأتيون بما هو خير من شعره، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه»^(٢٤)، ولا يخفى ان شاعرا كأبي فراس يدرك مدى قدرة المنتبي الشعرية وموهبته العالية وتميزه من أقرانه الشعراء. ولم يغتفر ابو العشائر للمنتبي عدم اهتمامه به بعد ان أسدى اليه فضلا كبيرا وأهداه الى سيف الدولة^(٢٥)، فترفع بعد ذلك عن مدحه، وكان قد نظم له قصائد ومدائح كثيرة^(٢٦).

ومما اقلق المنتبي وأسهم في اتخاذه مواقف حاسمة، منها فراق سيف الدولة وتوجهه الى كافور، اقبال الامير عليه، باديء الامر، بقوة وشغف واعجاب، ثم الاستماع الى الوشاة والحساد والتأثر باقوالهم، فيما بعد، والإعراض عن الشاعر: «قال ابو الفتح بن جني: كنت قرأت ديوان المنتبي عليه فلما وصلت الى قوله: أغالب فيك الشوق والشوق أغلب - القصيدة، قلت له، يعز علي ان يكون هذا الشعر في ممدوح غير سقف الدولة، فقال: حذرناه وانذرناه... ألت القائل فيه:

أخا الجود أعطِ الناس ما أنت مالك

ولا تعطينَ الناس ما انا قائل

فهو الذي اعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تمييزه»^(٢٧)، فموقف سيف

الدولة المتأرجح بين الشاعر وحساده، خلف نوعاً من المعاناة، كانت وطأتها ثقيلة على كبرياء المتنبي ووجدانه، لانه احب سيف الدولة واطمأن اليه ولم ينجل من مدحه وتطلع الى تحقيق الابداع في غزواته وحروبته. ولكن الامير غافل وأبا محسد وحيد، عدته موهبته الشعرية، ومبغضوه كثيرون، ووسائلهم متنوعة، منها الاكاذيب والمكائد، لا يهدأ لهم بال حتى ينهوا ما بين الشاعر وصاحبه. وبدأ صراع مرير خفي بين المتنبي والحساد: اما ان ينتصر او يندحر، والمحكم هنا سيف الدولة، وعليه وحدة تتوقف نتائج الصراع والحلبة في حلب، وله ان يقرر الى أي الجانبين يميل، هل يهدر الموهبة الشعرية العالية بأقوال الحاسدين؟ واين تصير رعايته للشعر وحبه للخلود فيه؟ وشمر المتنبي عن ساعديه، ولم يملك سوى الشعر يدفع به الحساد ويدير الصراع، فليتخذة درعاً واقية، ولينبه سيف الدولة الى الامر الجلل، فهو الخصم والحكم، وهو المجد والخيبة^(٢٨):

ازل حسد الحساد عني بكتبهم
فأنت الذي صيرتهم لي حسدا

فسيف الدولة خلق طبقة من الحساد أزعجوا الشاعر بأراجيفهم واقوالهم ويتحتم عليه ان يزيلهم من الطريق، وان يبهيء له اجواء الابداع، فان خذله اوقع به بعد ان: «جذب بضعبه ورفع من قدره»^(٢٩)، واتاح للحساد ان يشمتوا، والشاعر يبحث عن عذر^(٣٠):

وللحساد عذر ان يشحوا
على نظري اليه وان يذوبوا
فاني قد وصلت الى مكان
اليه تحسد الحدق القلوب

وحين وصل الى ذلك المكان لم يبال ان يسخط الناس جميعا ليرضي
مدوحه^(٣١):

وبمهجتي ياعاذلي الملك الذي
أسخطتُ كلَّ الناس في ارضائه

فليس له سوى ان يحنه على الالتزام بمواقفه الاولى وعدم الاستماع الى
الوشاة(٣٢) :

رويـدك ايها الملك الجليلُ
تأنيَّ وعدّه مما تنيلُ
وجودُك بالمقام ولو قليلا
فما فيما تجود به قليـلُ
لأكبـتَ حاسدا وأري عدوا
كأنها وداعُك والرحيلُ

فان آزره الامير، في حلبة صراعه مع الحساد، قضى عليهم بسيف
يقطع الهام في غمده(٣٣) :

اذا شد زندي حسنُ رأيك في يدي
ضربتُ بنصلٍ يقطع الهامَ مغمدا
وما أنا الا سمهريُّ حملته
فزين معروضاً وراعَ مسددا

ويريد من سيف الدولة ان يفرق بين الكريم والليث وان يحسن مواطن
الرفض والقبول والقوة والضعف(٣٤) :

اذا أنت اكرمت الكريمَ ملكته
وان انت اكرمت اللئيمَ تمردا
ووضعُ الندى في موضع السيف بالاعلا
مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

فسيف الدولة نفسه لم ينج من الحساد والمبغضين والحاquدين (٢٥) :

فدتك نفوسُ الحاسدين فانها
معذبةٌ في حضرةٍ ومغيبِ
وفي تعبٍ من يحسدُ الشمسَ نورها
ويجهدُ ان يأتى لها بضريبِ
وكان قد ضرب الامير خيمة، وأشاع الحساد ان مقامه يتصل بها،
فهبت ريح شديدة فوقعت الخيمة، فتكلم الناس في ذلك، فنظم المتنبي
قصيدة، منها (٢٦) :

فما العاندون وما أملوا
وما الحاسدون وما قولوا
هم يطلبون فمن ادركوا
وهم يكذبون فمن يقبلُ

والامثلة كثيرة. ولكن هذه التعاويذ الشعرية لم تجد نفعاً ولم تحقق أملاً!
وبقي موقف سيف الدولة يميل تارة مع الشاعر واخرى مع الحساد وبدأت
الأرض التي يقف عليها المتنبي في حلب تميد، ولم يكن ممن يقبل الذل او
يخلي مكانته في القمة للآخرين، ولا ممن يقر بانتصارهم عليه، فترك التنبيه
والحث والاشارات البعيدة ولجأ الى العتاب، وكان عتابه في البداية رقيقاً
حيث أشبه بالهمس بين رفيقين او المناجاة بين حبيبين (٢٧) :

أرى ذلك القربَ صار ازورارا
وصار طويلاً السلام اختصارا
تـركـنـي الـيـومَ في خجلية
اموتُ مراراً وأحيا مرارا
اسارقك اللحظَ مستحيياً
وأزجرُ في الخيل مهري سرارا

وأعلم أني إذا ما اعتذرتُ
إليك أراد اعتذارِي اعتذارا
فلا تلزمني ذنوبَ الزمان
إليَّ أساءَ وإيائي ضارا
وعندي لك الشرُّ السائرا
ت لا يختصصن من الارض دارا
قوافٍ إذا سرن عن مقولي
وثن الجبالَ وخضن البحارا
ولي فيك ما لم يقل قائلٌ
وما لم يسر قمرٌ حيث سارا
فلو خلق الناسُ من دهرهم
لكانوا الظلامَ وكنت النهار

ويسفر ابو الطيب، حين لا ينفع العتاب، عن شعوره الحقيقي ورفضه للواقع المهين، ولموقف سيف الدولة المضطرب، ويطلق بصوت جديد لا يعرف المهادنة والمراوغة، ويعلي من شأن كبريائه، ويحل العنف الشعري مكان اللوم والعتاب، لعل فيه خلاصاً، ويطلع على سيف الدولة بقصيدته الخالدة التي تفصح عن سمات الشاعر ودواخله النفسية اكثر من اية قصيدة اخرى. وكانت رد فعل شعري قوي للحساد والمناوئين ومواقف سيف الدولة منهم^(٣٨):

واحر قلباه من قلبه شمٌ
ومن بجسمي وحالي عنده سقمٌ

ولم تجد هذه القصيدة شيئاً^(٣٩)، بالرغم من حمها الثائرة وتقريع سيف الدولة الواضح والتعريض به، وما عاد امام الشاعر سوى الرحيل، فقد وصل به الامر ان يهينه ابن خالويه بالضرب، إثر مناقشة لغوية، فلا

ينتصر له سيف الدولة. قال المتنبّي لابن خالويه، بعد ان أخرج من كمه مفتاحاً ليضربه به: « ... اسكت ويحك، فانك أعجمي واصلك خوزي، فما لك وللعربية؟ فضرب المتنبّي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه، فغضب المتنبّي اذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولاً ولا فعلاً، فكان ذلك احد أسباب فراقه»^(٤٠)، ويرى محمود محمد شاكر ان هذا الفراق حصل لاسباب اقتضاها حب ابي الطيب لخولة أخت سيف الدولة^(٤١)، وينحي بعض الكتاب باللائمة على الشاعر، وكأن لم يكن للحساد ذنب: « ... تعبت وتظلم وكان هو الظالم لنفسه، في طبعه استدعاء عداوات الناس لانه كان عريضا كثير التعريض والتصريح لندماء سيف الدولة، شديد الزهو والافتخار عليهم، ... وكانوا عصبه، وآل الامر الى ان غلبوه وازعجوه عن حضرة سيف الدولة وأخرجوه من نعمته»^(٤٢).

ويشد المتنبّي الرحال الى مصر، ويظل وفياً لسيف الدولة، ويلاحقه حساد حلب وهو في مصر، ويشيعون انه توفي وينعونه في مجلس الامير^(٤٣):

يامن نُعيتُ على بعدٍ بمجلسه
كلُّ بما زعمَ الناعون مررتهم
كم قد قتلتُ وم قد متُّ عندكم
ثم انتفضت فزال القبرُ والكفن
قد كان شاهد دفي قبل قولهم
جماعةٌ ثم ماتوا قبل من دفنوا
وأشار، في قصائد يمدح بها كافوراً، الى سيف الدولة اشارات كثيرة تفصح عن حبه ووفائه الدائم له، ولكن ما الذي يفعل الشاعر وقد استمع بمدوحه الى قول عداوته، وتلبسه الشك من كل جانب^(٤٤):

فلو كان ما بي من حبيبٍ مقنعٍ
عذرتُ ولكن من حبيبٍ معممٍ

رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى
هوى كاسرٌ كفي وقوسي وأسهمي
إذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونُه
وصدَّقَ ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عُداته
وأصبح في ليل من الشك مظلم
ويخاطب قلبه ويطلب منه الوفاء لمن نأى وغدر ولم يرزق جوده خلاصاً
من الاذى^(٤٥) :

حبيتك قلبي قبل حبك من نأى
وقد كان غداراً فكن ليَ وافيًا
إذا الجودُ لم يرزق خلاصاً من الاذى
فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً
ويأتيه في العراق نعي أخت سيف الدولة فيكتب اليه قصيدة، يخاطبه
فيها^(٤٦) :

أرى العراقَ طويلاً الليلَ مذُنُعت
فكيف ليل فتى الفتيان في حلبِ
يظن ان فؤادي غير ملتهبِ
وان دمع جفوني غير منسكبِ
بلى وحرمةٍ من كانت مراعيةً
لحرمة المجد والقصاد والادبِ
يا احسن الصبرِ زر أولى القلوب بها
وقل لصاحبه يا انفع السحبِ
وأكرم الناسِ لامستنياً أحداً
من الكرام سوى آبائك النجبِ

ويدرك سيف الدولة ما فعل، ويندم ويأسى، ويود لو يعود الشاعر، ويكتب له، ويهم المتنبى بالرجوع، ولكنه يخاف الوشاة والحساد ان يعاودوه ويخشى النميمة والكذب، فيمتنع. وهكذا استطاع الحساد ان يعاودوه عن سيف الدولة وان يمنعوا عودته اليه، وان يكونوا سداً منيعاً بينها، وظل اللقاء املاً لا يتحقق، وخلف في قلبيهما جرحاً لا يندمل^(٤٧):

فهمتُ الكتابَ أبرَ الكتبِ
فسمعا لأمرِ أميرِ العربِ
وطوعاً له وابتهاجاً به
وان قصَّـرَ الفعلَ عما وجب
وما عاقني غيرُ خوفِ الوشاة
وان الوشايات طرقت الكذب
وتكثيرِ قومٍ وتقليلهم
وتقريبهم بيننا والخب
وقد كان ينصرهم سمعه
وينصرني قلبه والحسب
وما لاقني بلدٌ بعدم
ولا اعتضت من رب نهاي رب
واني لاتبعُ تذكاره
صلاةَ الالهِ وسقي السحب

وتحقق ما اراد الحساد، ولم يستطع فارس العصر وشاعره، ان يصمدا امام المكيدة والحقد، او ان يلتقيا بعد فراق، ونأى المتنبى عن سيف الدولة، وانفرط ما انعقد بينها، وكان يحث كافورا على ان يثار له من اولئك الحساد وان يوليه مقاطعة تحزنهم وتغيظهم فينتصر عليهم الشاعر، ويسعد بعد شقاء، ويرفل في اثواب المجد^(٤٨):

ابا المسك ارجو منك نصراً على العدا
وآمل عزاً يخضب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالةً
أقيم الشقا فيها مقام التنعم
ويبدأ طور مأساوي جديد بين الشاعر وممدوح آخر، ولم يكن كافور
يجعل ان طموح المتنبى لا حدود له، فلم يمكنه مما أراد، خوفاً على ملكه
اولاً، ثم ان شاعرا من قبل لم يطلب ان يشارك الممدوح الحكم ليغيظ
حساده وينال منهم، ولولا اولئك الحساد لما غادر المتنبى حلب، ولما مدح
كافوراً، ولما أورث ذلك المدح ندماً، ولما انعكس ذلك الندم هجاءً^(٤٩)،
وبعد رحلة الثأر من الحساد الخائبة في مصر، يهرب الشاعر فيتعقبه جند
كافور، وينجو ويذيع قصيدته الشهيرة في هجائه، ومنها^(٥٠) :

إذا أردت كميّتَ اللون صافيةً
وجدتها وحيبُ النفسِ مفقودُ
ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبها
أني بما أنا بكِ منه محسودُ

ويذكر في المقصورة^(٥١)، خروجه من مصر والنوق السريعة التي
اجتازت به المهالك، وما لقي من احداث، ويفخر ويهجو كافوراً لانه لم
يثار له من حساده، أو يهيب له حكماً ربما كان الشاعر يود به ان يلم من
شئات أمة مزقتها دويلات وخصومات.

ويرافق الحسد ابا الطيب في كل مكان، قبل رحلته الى مصر وبعدها،
وكان له مناوئون أقوياء من بين رجال عصره الذين لم يتمدحهم او لم
ترضهم اماديجه القليلة لهم، فادركوا انه يستهين بهم ولا يجدهم يستحقون
مديحه، وليس لهم من طريق الى الخلود غير الشعر، والمتنبى يرضن عليهم به،
فغضبوا وثاروا وهددوا وتوعدوا، وتجمعت عندهم طبقات اخرى من

الحساد والوشاة، وأغروا بأبي محسد شعراء وكتاباً وجدوا مجالا رحبا للنيل منه، بقصائد ورسائل، ووسائل أخرى. فكان ان اقترن حسد هؤلاء باولئك ومما تذكر كتب الادب: ان ثلاثة من بني حيدرة لعداوة بينهم وبين المتنبي قالوا لصاحب طرابلس، ابن كيغلع، حين مر الشاعر بها: ما نحب ان يجاوزك ولم يمدحك، مع معرفتهم بترفعه عن مدحه، فراسله وسأله، فاحتج يمين الى مدة، فسد عليه الطرق حتى تنتهي فيمدحه، واضطر الشاعر ان يهرب وأذاع قصيدة في هجائه (٥٢).

واستطاع أحد حاسديه وهو الأعور ابن كروس، ان يفسد عليه ممدوحه بدر بن عمار، حين سار الى طبرية وتحلف عنه الشاعر فكتب اليه ابن كروس: « ان ابا الطيب انما تخلف عنك رغبة بنفسه عن المسير معك، وبلغ ذلك ابا الطيب فثارت نفسه وعزم على الرحيل وخاف ان يسلمه بدر الى اعدائه فيرصدوا له ويفتكوا به على غرة» (٥٣)، وكان قد خاطبه بقوله (٥٤):

عدوي كلُّ شيء فيك حتى
 خللت الأثم موغرة الصدورِ
 فلو اني حُسدت على نفيس
 لجدتُ به لذي الجد العثورِ
 ولكني حُسدت على حياتي
 وما خير الحياة بلا سرورِ

واتخذ قوم الهجاء وسيلة للايقاع به فكتبوا قصيدة في هجاء الحسين بن اسحاق التنوخي ونخلوها ابا الطيب، فكتب اليه يعاتبه، فقال (٥٥):

أتنكر يا ابنَ اسحاقٍ إخائي
 وتحسبُ ماءَ غيري من انائي
 وهبني قلت هذا الصبحُ ليلٌ
 أيعمى العالمون عن الضياءِ

تطيعُ الحاسدين وانت مرة
جُعلت فداءه وهم فداي

ومن اعداء المتني ابن خنزابة، وزير كافور: « فقد جر المتني على نفسه كثيرا من الصعاب بمصر، بترفعه عن بطانة كافور ووزيره ابن الفرات المعروف بابن خنزابة»^(٥٦)، الذي جمع كتبه وجمهرة من الادباء وجهد لينفي عن المتني فضله في نظمه لهذا البيت:

أزورهم وسوادُ الليل يشفع لي
وانثي وبياضُ الصبح يغري بي

وابتكاره لمعناه دون اقتباس او سرقة او اتكاء على بيت شاعر آخر، وذهبت جهود ابن خنزابة، نبطي مقصورة المتني^(٥٧)، الذي الف كتاباً في اسماء الرجال والانساب^(٥٨) وجماعته سدى^(٥٩)، وكان ابن وكيع من انصار الوزير فألف رسالة سماها: (المنصف للسارق والمسروق من المتني)، قال عنها ابن رشيقي: « ما ابعد كتاب المنصف من الأنصاف»^(٦٠).

ومن حساد ابي محمد ومبغضيه ابن العميد، « وكان يخاف ان لا يمدحه»^(٦١)، دخل عليه احد اصحابه: « قال: فوجدته واجما وكانت قد ماتت اخته عن قريب فظننته واجداً لأجلها فقلت لا يوزن الله الوزير فما الخير؟ قال: انه ليغيطني أمر هذا المتني واجتهادي في ان أخذ ذكره وقد ورد علي نيف وستون كتابا في التعزية، ما منها الا وقد صدر بقوله:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملاً
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى إخماد ذكره؟ فقلت: القدر لا يغالب، والرجل ذو حظ من اشاعة الذكر واشتهار الاسم، فالأولى ان لا تشغل فكرك بهذا الامر»^(٦٣)، وقد مدحه المتنبي بالرغم من ذلك^(٦٣)، ووصفه بأنه الاسكندر في ملكه وارسطو في علمه وبطليموس في حكمته^(٦٤).

واحب الصاحب بن عباد ان يمدحه المتنبي: « فلم يقم له وزناً »^(٦٥) ولم يقصده فجزع وسخط^(٦٦)، « واتخذ الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الوقية، ويتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته، وينعى عليه سيئاته »^(٦٧) فكتب رسالته: « الكشف عن مساوي المتنبي »^(٦٨)، ولم تكن هذه المساويء تستحق بحثاً وعناءً، فألف الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه:

« ... فأحسن وأبدع وأطال وأطاب وأصاب شاكلة الصواب... »^(٦٩)، ومما قاله الجرجاني: « وما زلت أرى اهل الادب - منذ ألحقتني الرغبة بجملتهم، ووصلت العناية ببني وبينهم - في أبي الطيب احمد بن الحسين المتنبي فثنين: من مطنب في تقريلظه، منقطع اليه بجملته... يتلقى مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم، ويشيع محاسنه اذا حكيت بالتفخيم... وعائب يروم ازالته عن رتبته، فلم يسلم له فضله، ويحاول حطه عن منزلة بوأه اياها أدبه فهو يجتهد في اخفاء فضائله، واطهر معايبه، وتتبع سقطاته، واذاعة غفلاته، وكلا الفريقين اما ظالم له او للأدب فيه... »^(٧٠)، ووجه الجرجاني خطابه الى الصاحب بن عباد: « وأقبل عليك ايها الراوي المتعجب فأقول لك: خبرني عن تعظمه من اوائل الشعراء، ومن تفتتح به طبقات المحدثين، هل خلص لك شعر احدهم من شائبة وصفا من كدر ومعاية؟... فأبو الطيب واحد من الجملة، فكيف خص بالظلم من بينها، ورجل من الجماعة فلم أفرده بالحيف دونها؟ فان قلت: كثر زلله، وقل احسانه، واتسعت معايبه، وضائق محاسنه، قلنا: هذا ديوانه حاضرا وشعره موجودا يمكننا، هم نستقرئه وننصفحه، ونقبله ونمتحنه، ثم لك بكل سيئة عشر حسنات،

وبكل نقيصة عشر فضائل...»^(٧١) ولم يتورع الصاحب بن عباد، بالرغم من كشفه، ان يسرق بعض معاني المتنبي^(٧٢)، وان يغير كلمات في اشعاره ليعيها عليه^(٧٣).

ولعل الوزير المهلي، الذي لم يمدحه الشاعر، من أخطر المناوئين والاعداء: «ولما قدم ابو الطيب من مصر بغداد، وترفع عن مدح المهلي الوزير، ذهابا بنفسه عن مدح غير الملوك، شق ذلك على المهلي، فاغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه، وتباروا في هجائه، ومنهم ابن الحجاج وابن سكرة الهاشمي، والحائمي، واسمعوه ما يكره، وتماجنوا به، وتنادروا عليه فلم يجبههم، ولم يفكر فيهم، وقيل له في ذلك، فقال: إني فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء.

أرى المتشاعرين عُروا بذي
ومن ذا يجمدُ الداءُ العضالاً
ومن يكُ ذا فم مر مريض
يجد مرراً به الماء الزلالاً

وقولي:

أفي كلِّ يومٍ تحت ضبني شويعرٌ
ضعيفٌ يقاويني قصير يطاولُ
لساني بنطقي صامتٌ عنه عادلٌ
وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هازلُ
وأتعبُ من ناداك من لا تجيبه
وأغيظُ من عاداك من لا تشاكلُ
وما التيهُ طيبٍ فيهمُ غير أني
بغيضٍ إليَّ الجاهلُ المتعاقلُ

وقولي:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ
فهي الشهادة لي بأني كاملٌ»^(٧٤)

وليت الشاعر التزم بتعاليه واحتقاره للحساد، ولم يهتم بهم ولم يتح لهم مجال اهدار طاقاته ومواهبه وأحاسيسه، بالادلالات عليهم ومحاولة اغاظتهم وتوعدهم وتحديهم ورد مكائدهم، وما أروع موقفه من ابن الحجاج ورده البليغ عليه حين امسك بلجام دابته، بتحريض من المهلي، وانشده شعراً مقدعاً في ملأ من الناس، وحاول النيل منه، فصبر عليه حتى انتهى، وانصرف دون ان يفوه بكلمة^(٧٥).

وكان المهلي قد حرص الحاتمي على النيل منه: «سامني هتك حرمة وتمزيق أديمه ووكلي بتتبع عواره وتصفح اشعراه وإحواجه الى مفارقة العراق»^(٧٦)، فحاوره الحاتمي وناظره وظن انه نال منه، ففرح المهلي وذهب الى معز الدولة يبشره بما حدث: «أعلمت ما كان من ابي علي الحاتمي والمنتبي، فانه شفى منه صدرا»^(٧٧)، «فموقف الحاتمي من المنتبي معروف، كله تحيف وتحامل لانه صنعة من صنائع المهلي ومعز الدولة بن بويه»^(٧٨)، وما اضيع هذين الرجلين اللذين يسعدان باهانة الشاعر والتعريض به، «قال أبو علي الحاتمي: كان ابو الطيب عند وروده مدينة السلام، قد التحف برداء الكبر والعظمة، يخيل اليه ان العلم مقصور عليه، وان الشعر لا يغترف عذبه غيره... وتخيل ابو محمد المهلي انه لا يتمكن احد من مساجلته ومقارعتة، ولا يقوم لمجادلته، والتعلق بشيء من مطاعنه، وساء معز الدولة ان يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه، ولم يكن بمملكته أحد يماثله فيما هو فيه ولا يساويه في منزلته يبدي لهم عواره ويكفي آثاره ويهتك استاره... فتوخيت ان يجمعنا مجلس اجري أنا واياه في مضماره ليعرف السابق من المسبوق...»^(٧٩)، واتهم المنتبي

بالسرقة ونفى عنه التوليد والابتكار: « ما أعرف لك احسانا في جميع ما ذكرت، وانما أنت سارق متبع، وآخذ مقصر، وفيما تقدم من هذه المعاني مندوحة عن التشاغل بها»^(٨٠)، والسرقة الادبية قضية معقدة متشعبة، طال حديث الأقدمين عنها، ولا شك في ان اتهام الحاتمي باطل، فيه من التحامل والغلو ما يشين، وقد ناقش كثير من الكتاب مسألة اتهام المتنبي بالسرقة واظهروا خطأ ما ذهب اليه الحاتمي وغيره^(٨١)، «واحيا المتنبي كثيرا من موتى الشعراء، فلولاه ما ذكروا، ذكرهم نقاده اذ زعموا انه سرق هذا او ذلك المعنى منهم فعاشوا»^(٨٢)، وكان المهلبى نفسه الذي دفع الحاتمي الى اثبات سرقات المتنبي، قد سرق بعض معاني الشاعر^(٨٣).

ورأى الحاتمي ان حكم المتنبي مستمدة ومقتبسة من اقوال ارسطو^(٨٤) وقد أخطأ فيما ذهب اليه مرتين: الاولى حين فهم حكم الشاعر ابياتاً مفردة او انصاف ابيات مجردة من النص ومن ظروف نظمها واحاسيس صاحبها، واكان ابو الطيب قد اتخذها ستاراً يضم كثيرا من معانٍ خفية بعيدة تومىء الى ما لا يستطيع الافصاح عنه مباشرة، وهدف من ورائها الى مقاصد ابعد غورا من حكمة ظاهرة، وقد اثبتنا ان كثيرا من حكم المتنبي ليست حكماً، وأن المتنبي ليس شاعرا حكما طبقاً لما عرف عنه^(٨٥). والثانية: ان حكم المتنبي، لو نظمت لغرض حكيمى فلسفي محض، بينها وبين اقوال ارسطو فروق وتفاوت وتباين، ولم يدرك الحاتمي ان التجارب الانسانية تتشابه وقد يخرج مفكران بنتيجة واحدة إثر تجربة مماثلة.

وحاول المهلبى ان يحط من نسب المتنبي أيضاً: « وظل الناس يلهجون مدى الف عام ان أباه كان يعرف بعبدان او عيدان السقاء. ولكن هذه الدعوى لم يتردد صداها في التاريخ الا منذ عام ٣٥٢ هـ بعد وقعة شعراء بغداد فيه باغراء الوزير المهلبى وذلك قبيل سفره الى فارس»^(٨٦)، وقد نفى هذه المسألة كتاب قدماء كالعميدي الذي أشار في (الابانة) الى جلالة

نسبه^(٨٧)، ومحدثون ومنهم: عمر فروخ ورضوان الشهبال ومحمود شاکر^(٨٨)،
وعبد الغني الملاح^(٨٩).

ولعل لعضد الدولة، أحد رجالات عصره، يدا في مقتله، وبالرغم من
مدائح المتنبّي له^(٩٠)، فقد وغر في صدره حقد على الشاعر وحسد لممدوحيه
السابقين كسيف الدولة: «... وقيل: سبب قتله انه لما ورد على عضد
الدولة ومدحه وصله بثلاثة الاف دينار وثلاثة أفراس مسرجة محلاة، ثم
دس من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال: ان سيف
الدولة كان يعطي طبعا وعضد الدولة تطبعا، فغضب عضد الدولة، فلما
انصرف جهز اليه قوما من بني ضبة فقتلوه...»^(٩١)، ويؤيد فيصل السامر
هذه الرواية^(٩٢)، وينفيها عزام^(٩٣)، ويرى محمود محمد شاکر ان لكافور يداً
في مقتله^(٩٤).

ومن العوامل التي زادت من الخصومة وألبت عليه الحساد والاعداء
اعتزازه بعروبته وموقفه الصريح من الاعاجم، وبعض من ملكوا وحكموا
منهم^(٩٥):

وانما الناسُ بالملوك وما
تُفْلِحُ عُرْبٌ ملوكها عجمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ
ولا عهدٌ لهم ولا ذممُ

ولا يعدم المتنبّي حساداً مجهولين، اكل الحقد قلوبهم، لالسبب ظاهر:
«... نقل بعض ائمة الادب ان رجلا من مدينة السلام كان يكره ابا
الطيب المتنبّي، فألى على نفسه الا يسكن مدينة يذكر بها ابو الطيب وينشد
كلامه، فهاجر من مدينة السلام، وكان كلما وصل بلدا يسمع بها ذكره
يرحل عنها حتى وصل الى اقصى بلاد الترك، فسأل اهلها عن ابي الطيب
فلم يعرفوه، فتوطنها فلما كان يوم الجمعة ذهب الى صلاتها بالجامع، فسمع

الخطيب ينشد بعد ذكر اسماء الله الحسنى:
أسامياً لم تزده معرفَةً
وانما لذّة ذكرناها

فعاد الى دار السلام»^(٩٦).

وللمتني، وما يتمتع به من صفات خاصة، أثر كبير في تأليب الحساد
وتأجيج الخصومات، فهو متميز في شخصيته وافعاله، معتد بنفسه، مدل
بمواهبه، ذو كبرياء وطموح لا يجد^(٩٧).

اذا غامرتَ في شرف مـروم
فلا تقنّع بما دون النجوم

يملك طاقة هائلة، لم تأتلف وظروف حياته واحداث زمانه فظلت
حييسة تبحث عن منفذ، ولا تجده، وتمثل في تناقض يتخذ اشكالا
متنوعة من اقبال وادبار على امر بعينه، ومديح وهجاء لشخص بذاته،
وحل وترحال، وحدة وانفعال، ورفعة وانخفاض، وقبول هبات لا تتفق
ونوازع الكبرياء في نفسه^(٩٨)، فاختلط الواقع بالوهم، واضطرب القول
والفعل، وضاع المجد والطموح، وتكونت لدى الشاعر هواجس مقلقة،
منها صروف الدهر والزمن العاتي^(٩٩)، ومنها الحساد وما صنعوا، ومنها
الرغبة في الحكم والتسلط، والروح الآمرة الآسرة، ولم يكن ما قيل عن
ادعائه النبوة^(١٠٠)، سوى منفذ صغير واحد، لم يدم طويلا، وكان رأيه في
ذاته يفوق ما للناس من آراء في ذواتهم، ويصل احيانا حد التأليه لنفسه،
والتفوق على العالمين على نحو غريب غير مألوف، فيه نرجسية وعصاب،
والا كيف نبرر قوله في صباه^(١٠١):

أطّ عنك تشيبي بما وكأنه
فما أحدٌ فوقِي ولا أحدٌ مثلي

او تدرك لماذا يحتقر الناس^(١٠٢) :

أي محل ارتقي اي عظيم اتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقراً في همتي كشعرة في مفرقي
أو يضعهم تحت إخصيه^(١٠٣) :

ضاق ذرعاً بأن أضيّق به ذر
عاً زماني واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت إخصي قَدرِ نفسي
واقفاً تحت إخصي الأنام
ولماذا يتخذ منهم مطية الى احد ممدوحيه^(١٠٤) :

لو استطعت ركبتُ الناسَ كلهم
الى سعيدِ بنِ عبدِاللهِ بعيرانا
ولماذا يعدُّ أشعار غيره ضرباً من النهيق^(١٠٥) :

لم تزلُ تسمعُ المديحَ ولكن
صهيلُ الجوادِ غيرِ النهاقِ
واية منزلة يريد ان يبلغه اياها الزمن دون ان يبلغها الزمن من نفسه^(١٠٦) :
أريدُ من زميِ ذا أن يبلغني
ما ليس يبلغهُ من نفسه الزمن

ان نوازع المتنبي المختلفة، وشخصيته المتميزة المتسلطة اسهمت بقدر كبير في خلق طبقة من الحساد، يندر فيهم من يتخذ من موهبة الشاعر او تكوين الفنان عذراً لظواهر غريبة بدت منه، وليس عجيباً أيضاً ان يكون حول المتنبي مبغضون كثيرون، فقدرتة على خلق الاعداء هائلة، وتعالیه الشامخ يقلق من يريد ان ينفرد او يتميز بشيء امامه، وهذا ما حدا بسيف

الدولة ان يعرض ويسيء ويستمع الى الوشاة، وكان من الطبيعي جدا الا
يا به الشاعر للحاسدين، ولا نستطيع ان نوفق بين كبريائه وتعاليه وصلفه
واهتمامه المفرط الشديد بما يقولون ويفعلون، بعد ان وصفهم بالضعفة
والحمق والتفاهة، وكنا نود لو استطاع المتنبي ان يجيل ما يرد في بعض
ابياته الى واقع حقيقي ملموس^(١٠٧):

لا تَلِقْ دَهْرَكَ الا غَيْرَ مَكَرَثِ
ما دام يصحبُ فيه رَوْحَكَ البَدَنُ
فيصْفح ويستهن^(١٠٨):

أبدو فيسجدُ من بالسوء يذكرني
فلا أعاتبه صفحا واهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني
ان النفسَ غريباً حيثما كانا
محمّسُ الفضل مكدوبٌ على أثري
ألقي الكمي ويلقاني اذا حانا

ولماذا لم يعنه رضى ممدوحه، على ما يقول، في احتقار الحساد^(١٠٩):
غضبُ الحسودِ اذا لقيتك راضيا
رزء أخف علي من أن يوزنا
وكيف يكثرث بمقلة عمياء^(١١٠):

وإذا خفيستُ على الغبي فعاذرٌ
ان لا تراني مقلّة عمياء
أو يلتفت الى الاضداد^(١١١):

وأرحمُ اقواما من العبي والغبا
وأعذرُ في بغضي لأنهم ضد

أو يهتّم بمن لا يساؤون الخبز الذي يأكلون، فلا يبالي ولا يداجي ولا يتوانى
في امره ولا يضعف ولا يعجز ويقضي على مناوئيه بسلاحين فتاكين:
السيف والشعر، ولكن الى أي مدى يتطابق القول والفعل؟ لانهج في
الواقع سوى الاهتمام الشديد بالحساد وما لفقوا^(١١٣):

أن الكذابَ الذي أكاد به
أهونُ عندي من الذي نقلته
فلا مبالٍ ولا مداجٍ ولا
فان ولا عاجزٌ ولا تُكلّنه
ودارعٍ سفتهُ فخرٌ لقي
في الملتقى والعجاج والعجله
وسامعٍ رعتهُ بقافية
يحار فيها المنقحُ القوَلَه
وربما يشهدُ الطعام معي
من لا يساوي الخبزَ الذي أكله
ويظهر الجهلَ بي وأعرفه
والدرُّ درٌّ برغم من جهله
وليس لكلامِ الناسِ فيما يريه جذور ولا لقائله أصول، ويرى انه
يعادي بما يوجب الحب، فما الذي نفس عليه الحساد: موهبته الشعرية
العالية؟ اعتداده بنفسه وقدراته؟ طموحه وتطلعه الى المجد والرفعة؟ اهذا
ما يجتم البغضاء، وينفي الحب والثناء؟ ولكنه الحسد: داء لا يقوى على
شفائه أحد^(١١٣):

وما لكلامِ الناسِ فيما يريني
أصولٌ ولا للقائله أصولُ
أعدى على ما يُوجب الحبَّ للفتى
وأهدأ والافكار في تجولُ

سوى وجع الحساد داوِ فانه
إذا حلّ في قلب فليس يحولُ
ولا تطمعنُ من حاسدٍ في مودة
وان كنت تُبديها له وتنيّلُ
ولماذا لا يقتني آثار احد ممدوحيه في موقفه ازاء الحساد^(١١٤) :

ويحتقر الحساد عن ذكره لهم
كأنهم في الخلق ما خلقوا بعدُ
او موقف ممدوح اخر حمل حساده ان يموتوا غيظا فيحسدوا من يفتقر الى
خلة الحسد، ببلوغه الكمال فليس احد فوقه يحسده، فأراهم ما بهم من
تقصير عنه ونقص دونه^(١١٥) :

قطعتهم حسدا أراهم ما بهم
فتقطعوا حسدا لمن لا يحسدُ
فيعود يستجدي الايام ان تخطى فتقرب حبيباً وتبعد بغيضاً^(١١٦) :
أما تغلط الايام في بأن أرى
بغيضاً تنائي او حبيباً تقرب
ويتمنى ان يخلو شعره من عتاب وشكوى^(١١٧) :

ألا ليت شعري هل اقول قصيدة
فلا اشككي فيها ولا أتعيب
وكيف يثيره الحساد وهو عقوبة لهم، وقد وطئت اقدامه كل هامة^(١١٨) :

اني وان لمت حاسديّ فما
أنكرُ أني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم
له على كل هامة قدم

فتصبح الحياة مع اولئك الحساد أبغض من الموت، والليل اقصر من
نهار مشوب بالحافظهم، فهم نوابئ الحدثان، وليس له من مهرب سوى ان
يمتطي الخطوب الى احد ممدوحه^(١١٩):

وما ليلٌ بأطولَ من نهار
يظل بلحظِ حسادي مشوبا
وما موتٌ بأبغضَ من حياة
أرى لهمُ معي فيها نصيبا
عرفتُ نوابئ الحدثان حتى
لو انتسبت لكنست لها نقيبا
ولما قلت الابلُ امتطينا
الى ابنِ ابي سليمان الخطوبيا

ويبلغ به خوفه وهلعه من الحساد الا يبوح بشكواه الى احد من الناس لثلا
يكون واحداً منهم فيشمت به^(١٢٠):

ولا تشكَّ الى خلق فتشتمه
شكوى الجريح الى الغريان والرخم
ولا عجب فقد شمتوا حتى بموت جدته التي احبها كثيرا^(١٢١):

لئن لَدَّ يوم الشامتين بموتها
فقد ولدت مني لآنافهم رغما
ولا يغادر بلدا الى آخر الا وهو في خطر محيق من هؤلاء الحساد الذين لا
يخلو منهم مكان^(١٢٢):

لا اقتري بلداً الا على غررٍ
ولا أمرٌ بخلق غير مضطغن
وحمل هؤلاء الحساد ابا الطيب على ان يغلو في تعاليه وكبرياته وصلفه

وطموحه وان يزداد عتوا وصلابة رداً للحساد وعلاجاً مضاداً يدفع المحنة
ويخفف من الآثار الدامية^(١٢٣).

ولا تحسبن المجدَ زقياً وقينة
فما المجدُ الا السيفُ والفتكَةُ البكرُ
وتضريبُ اعناق الملوك وان ترى
لك الهبواتُ السودُ والعسكرُ المجرُ
وتركك في الدنيا دوياً كأنما
تداول سمعَ المرءِ أمْلَهُ العشرُ

★ ★ ★

ان اكن معجباً فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيدِ
أنا تراب الندى ورب القوافي
وسيام العدا وغیظ الحسودِ

★ ★ ★

وفؤادي من الملوك وان كا
ن لساني يرى من الشعراءِ

★ ★ ★

يقولون لي ما انت في كل بلدة
وما تبغي؟ ما أبتغي جلّ ان يُسمَى
كأن بنههم عالمون بأنني
جلوبٌ اليهم من معانده اليتما

والامثلة كثيرة. والحساد كثيرون، وعوامل الحسد وبواعثه لا تحصى:
وتأثيرهم في المتنبي لا يجد. ولا اظن ان شاعرا في العربية، وربما في غير
العربية وقع تحت تأثير الحسد، وكان ضحية له، على نحو ما كان ابو الطيب،

فكان لحاسديه في حياته ادوار غير مشرفة، وجهت تصرفاته واعماله، واربكت مزاجه ونوازعه، ودفعته الى الكبر والغرور، تعويضاً بائساً، والى ارادة التسلط والحكم، للكيد والتحدي، وأدت به الى المصير المأساوي المؤلم: القتل في الصحراء، والبقاء في العراء، اياما حتى اتت العقبان على ما ابقى الحساد منه. لم يقتله الهجاء وحده!

وهرب ابنه محمد من الموت وعاد ليحمل كنز ابيه من كتب ودفاتر فقتل ايضاً. وكان الشاعر يود لو يكنى، في حياته وبعد مماته، بأبي محمد وأوصى بذلك، ولم يرتض الالقاب الاخرى، فأبي حزن يمكن ان تورث هذه الرغبة؟! ولم تحقق الايام ما أراد. وضاع دم محمد وابيه هدرا.

ولم تنته رحلة الحسد بموت الشاعر، اتخذت اتجاهاً جديداً، في كتابات بعض الباحثين، من قدماء ومحدثين، وما لفقوا، بخيالهم المريض، من أخبار وحكايات وآراء ودراسات^(١٢٤)، ولم تكفه في حياته جهود حساده لتجريده من مواهبه، والصاق تهمة السرقة به، ووصمه بالضعف اللغوي، والصناعة والافتعال، وسلبه من فضل ابتكار المعاني الفلسفية في اشعاره وارجاعها الى ارسطو واقواله، واستعداد رجالات العصر عليه، وتحريض ممدوحيه للغدر به، والايغال طعناً في شرفه ونسبه واخلاقه. ولكن الشاعر بقي شامخاً مدلاً بتفوقه، عبر رحلة الحسد، وان انهكته واتعبته، وانحسر الحساد الى غياهب الماضي. فهل يجوز لنا ان نجح بالخيال فنتصور الشاعر بعيداً عن الحاسدين، مبرأ من الحاقدين، يوجه ما يملك لتطوير قدراته وتطويرها، لا يشغله هجاء ولا يهيمه حسد فيطول بقاؤه في هذه الأرض، وتكثر قصائده، ويزداد تراثه الشعري، ويثري الادب العربي بعطائه؟ ولكنه محض تصور يعين على استيعاب أثر الحساد والحاقدين في حياة المبدعين.

ان حساسية الفنان توقعه في شباك الحاسدين، ضحية سهلة، حين تزعزعه كلمة، او تقلقه التفاتة، او يركبه وهم، او يقض مضجعه

هاجس! وحين يتيح لهم ان يدركوا مكانم الضعف فيه. ونزعة التفوق عند الشاعر وتميزه وانفراده، وشمولية وعيه وادراكه، وعمق تفكيره ونفاذه، من مكونات روح شفاقة رقيقة، سريعة العطب والتأثر، ردود افعالها اقوى واعنف بكثير مما تلاقيه من احداث، تنكمش وتنتفح، تفرح وتحزن، في وقت واحد، لأمر عابر او اشارة غير مقصودة، لا يلتفت اليها آلاف الناس، في آلاف أيامهم ولا يعيرونها اهتماما، وتلك (شهادة الكمال) وضريبة اخرى يدفعها المتفوقون والمبدعون.

ودفع شاعرنا ثمن التفوق والموهبة من ذوب وجدانه واعصابه واحساسه، واحداث زمانه وحياته ولم يحمل معه تعويذة تقيه الحسد. وكان على العصر ان يرعى هذا الشاعر المتميز، ولكنه ككل العصور، وابو الطيب ككل المبدعين.

ولا يخفف من وطأة هذا الحسد سوى احتقار أصحابه، فلا يحظون باهتمام، الا في بحوث تحاول ان تعري عريهم بعد اكثر من ألف عام.

-
- (١) ينظر للمؤلف: التكسب بالشعر، بيروت ١٩٧٠، ص ٥٦ وما بعدها.
 - (٢) ينظر: ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٤٢، ٣٢٣. واليه نشر فيما نورد من نصوص شعرية.
 - (٣) الثعالبي، يتيمة الدهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٧.
 - (٤) لتفصيلات وافية عن قيام الدولة الحمدانية، ومكانة سيف الدولة، ينظر: د. فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ج ٢، بغداد ١٩٧٣، وفيه فصل عن المتنبي في حلب، ص ٢٧٢ وما بعدها.
 - (٥) يتيمة الدهر ١ - ٢٧.
 - (٦) المصدر السابق ٢٨.
 - (٧) المصدر السابق ٢٧.

- (٨) يوسف البديعي، الصبح المنبي عن حيشة المنبي، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة ١٩٦٣، ص ٧١. وينظر: رأي محمود محمد شاكر في هذا المسألة، المقتطف، المجلد ٨٨، القاهرة ١٩٣٦، ص ١١٠.
- (٩) الصبح المنبي ٧١.
- (١٠) البغدادي، خزانة الادب، ج ٢، القاهرة ١٣٣٧ هـ، ص ٣٠٨.
- (١١) شاكر ٦٦.
- (١٢) عن بلاشير، ينظر: محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٦١.
- (١٣) الديوان ٢ - ٣١٤. وينظر: الصبح المنبي ٣١٤.
- (١٤) الديوان ٢ - ٣١٤.
- (١٥) يتيمة الدهر ١ - ٢٤١.
- (١٦) الصبح المنبي ٨١.
- (١٧) - (١٩) ينظر: احسان عباس، تاريخ النقد الادبي عند العرب، بيروت ١٩٧١، ص ٢٧٠، ٢٧١، ومصادره.
- (٢٠) الصبح المنبي ٨١.
- (٢١) المصدر السابق ٨٠. وينظر: فيصل السامر ٢٩٣.
- (٢٢) الصبح المنبي ٨٠. وتنظر: يتيمة الدهر ٢ - ١٢٥.
- (٢٣) الديوان ٣ - ٣٤٠.
- (٢٤) الصبح المنبي ٨٨.
- (٢٥) خزانة الادب ٢ - ٣٠٦.
- (٢٦) ينظر الديوان: ج ١، ص ١٧، ٢٥٩. ج ٢، ص ١٨، ٢٠٧، ٣٦٢، ٣٧٢، ٣٨٤. ج ٣، ص ٢٦٤. ج ٤، ص ١٣٣، ٢٦٣، ٢٦٦.
- (٢٧) ابن خلكان، وفيات الاعيان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ١، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٠٤. ينفي الاستاذ عبد الغني الملاح وجود علاقة أو صلة بين المنبي وابن جني، تنظر: مجلة الثقافة، العدد ٦، بغداد ١٩٧٧، ص ١٦٧.
- (٢٨) الديوان ١ - ٢٨٩.
- (٢٩) يتيمة الدهر ١ - ١٢٦.
- (٣٠) - (٣٨) الديوان، ج ١، ص ٧٥، ٢. ج ٣، ص ٣. ج ١، ص ٢٩٠، ٢٨٨، ٥٦. ج ٣، ص ٧٠. ج ٢، ص ٩٤. ج ٣، ص ٣٦٢.
- (٣٩) ينظر: في هذا الكتاب الفصل الخاص بالحكمة، وفيه دراسة وشرح وافٍ لهذه القصيدة.
- (٤٠) الصبح المنبي ٨٧.
- (٤١) شاكر ١٤٤.

- (٤٢) الرأي لسعد بن محمد الازدي المعروف بالوحيد، ينظر: تاريخ النقد الادبي عند العرب، ص ٢٨٩.
- (٤٣) - (٤٨) الديوان، ج ٤، ص ٢٣٥، ١٣٥، ٢٨٣. ج ١، ص ٨٨، ٩٦. ج ٤. ص ١٣٨.
- (٤٩) ينظر: الفصل الخاص بالمتني وكافور من هذا الكتاب.
- (٥٠) - (٥٢) الديوان، ج ٢، ص ٤١، ج ١ ص ٣٨، ج ٤، ص ١٢١.
- (٥٣) شاكر ٨٧.
- (٥٤)، (٥٥) الديوان، ج ٢، ص ١٤٣، ج ١، ص ٩.
- (٥٦) محمد عبدالرحمن شعيب، المتني بين ناقديه، القاهرة ١٩٦٤، ص ٢٦. وينظر: الصبح المنبي ١١٣.
- (٥٧) اشارة الى قول المتني في المقصورة:
- بها نبطي من أهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا
- (٥٨) شاكر ١٤٩.
- (٥٩) يتيمة الدهر ١ - ١٥٣.
- (٦٠) تاريخ النقد الادبي ٣١١. وينظر: النقد المنهجي ١٧٥ وما بعدها.
- (٦١) الصبح المنبي ١٤٦.
- (٦٢) المصدر السابق ١٤٧.
- (٦٣) الديوان، ج ٢، ص ٤٧، ٥٩، ١٦٠.
- (٦٤) المصدر السابق ٢ - ١٧٠.
- (٦٥) يتيمة الدهر ١ - ١٣٨.
- (٦٦) الجرجاني، الوساطة بين المتني وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي، القاهرة ١٩٦٦، المقدمة، ص ب.
- (٦٧) يتيمة الدهر ١ - ١٣٨.
- (٦٨) حققها الشيخ محمد حسن آل ياسين، بغداد ١٩٦٥.
- (٦٩) يتيمة الدهر ١ - ١٣٨.
- (٧٠)، (٧١) الوساطة ٣ - ٥٣.
- (٧٢) يتيمة الدهر ١ - ١٤٥.
- (٧٣) الديوان ٣ - ١٣.
- (٧٤) يتيمة الدهر ١ - ١٢٧.
- (٧٥) ذكرى أبي الطيب ١٦٨، ومصادره.
- (٧٦) تاريخ النقد الأدبي ٢٦٣.
- (٧٧) الصبح المنبي ١٤٢.

- (٧٨) المتنبي بين ناقديه ٢٣٦ .
- (٧٩) الصبح المنبي ١٢٨ .
- (٨٠) المصدر السابق ١٣٤ .
- (٨١) تنظر: الوساطة، ص ٢١٦ وما بعدها. والمتنبي بين ناقديه، ص ١٨١. وما بعدها.
- (٨٢) مارون عبود، الرؤوس، ط ٣، بيروت ١٩٦٧، ص ١٩٩ .
- (٨٣) يتيمة الدهر ١ - ١٤٤ وما بعدها.
- (٨٤) تنظر: الرسالة الحاقمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو، تحقيق فؤاد أفرام البستاني، بيروت ١٩٣١ .
- (٨٥) ينظر: الفصل الخاص بالحكمة من هذا الكتاب.
- (٨٦) ابراهيم العريض، فن المتنبي بعد ألف عام، بيروت ١٩٦٢، ص ٥٩ .
- (٨٧) العميدي، الابانة عن سرقات المتنبي، تحقيق ابراهيم الدسوقي البساطي، القاهرة ١٩٦١، ص ٢٢ .
- (٨٨) شاكر ٩. وينظر: رضوان الشهال، أبو الطيب المتنبي، عملاق الواقعية في الشعر العربي، بيروت ١٩٦٢، ص ١١ وما بعدها.
- (٨٩) عبد الغني الملاح، المتنبي يسترد اياه، بغداد ١٩٧٤ .
- (٩٠) الديوان، ج ٢، ص ٣٨٥، ج ٣ ص ٢٩٩، ج ٤، ص ١٦٤، ٢٥١، ٢٦٩ .
- (٩١) الصبح المنبي، ١٧٤ .
- (٩٢) الدولة الحمدانية ٢٨١ .
- (٩٣) ذكرى أبي الطيب ١٩٠ .
- (٩٤) شاكر ١٦٦ .
- (٦٥) الديوان ٤ - ٥٩ .
- (٩٦) الصبح المنبي ١٦٠ .
- (٩٧) الديوان ٤ - ١٩١ .
- (٩٨) ينظر: التكسب بالشعر، ص ٥٧ وما بعدها.
- (٩٩) ينظر للكاتب: الفصل الخاص بالمتنبي في (الشعر والزمن)، منشورات وزارة الاعلام - بغداد ١٩٧٥، ص ٣٩ وما بعدها.
- (١٠٠) ينظر: د. حسام الالوسي: «أضواء جديدة على نبوة المتنبي»، مجلة كلية الآداب، العدد ١٠، بغداد ١٩٦٧ .
- (١٠١) (١٢٣) الديوان، ج ٣، ص ١٦١. ج ٢، ص ٣٤١. ج ٤، ص ٩٤، ٢٢٤. ج ٢، ص ٣٧١. ج ٤، ص ٢٣٣، ٢٢٣، ٢٠٧. ج ١، ص ١٥، ٣٧٧. ج ٣، ص ٢٦٨، ١٠٩. ج ١، ص ٣٨٠، ٣٣٥، ١٧٧، ١٨١. ج ٤، ص ٥٩. ج ١، ص ١٤٠، ٤٤، ١٦٢، ١٠٧، ٢١٠. ج ٢، ص ١٤٩. ج ١، ص ٣٢٣، ٣٦. ج ٤، ص ١٠٧ .

(١٣٤) ينظر: محمد كمال حلمي، أبو الطيب المتنبي، القاهرة ١٩٢١، ص ١٣٨ وما بعدها. ويعنى د. طه حسين بتأليف كتاب عن المتنبي يبدأه بقوله: «وليس المتنبي مع هذا من أحب الشعراء الي وآثرهم عندي، ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسي منزلة الحب أو الايثار، ولقد أتى علي حين من الدهر لم يكن يُحظر لي إني سأعنى بالمتنبي او اطيل صحبته او اديم التفكير فيه...»، وينهيه بقوله: «إني حين اقبلت على صحبته لم أكن جاداً ولا صاحب بحث ولا تحقيق وانما كنت عابثاً»، مع المتنبي، القاهرة ١٩٦٠، ص ٩، ٣٧٧ ويقول المازني في الفصل الخاص بالمتنبي، في حصاد المهشم، ط ٧، القاهرة ١٩٦١، ص ١٢٦: «وقد أبدأ قصيدة للمتنبي فلا أتم قراءتها... ولكني على شغفي بغيره، وقلة اقبالي ومواظبي عليه... أراني احفظ من شعره»،... الخ. والامثلة كثيرة.

المتنبى والحكمة

أفترض هنا أن المتنبى ليس شاعر حكم، طبقاً لما هو مشهور عنه، بتجريد وانفصال عن الحدث في القصيدة، وان قسماً من ابياته التي عرفت بين الناس على انها من الحكم كان يهدف من ورائها الى مقاصد اخرى لم يستطع ان يكشف عنها فتستر بالحكمة، كالشاعر المحدث الذي لجأ الى الرمز والاسطورة احياناً ليعبر عن معانٍ لا يستطيع الافصاح عنها مباشرة^(١). وسأحاول ان ابين ان وحدة الموضوع يجب ان تتوافر في النص الادبي وفي ذهن من يقرأ ذلك النص، لتم عملية فهمه متكاملةً، وان من شروط هذه الوحدة عند الشاعر ان يعبر عن تجربة معينة او موقف محدد، وعند القارئ ان يلم بالظروف النفسية التي احاطت بالشاعر حين نظم قصيدته. ولان فريقاً من القراء والنقاد لا يمكن ان يستوعبوا النص الأدبي كاملاً لعجالتهم ولتشتت افكارهم واهوائهم وخطأ تاريخي ساد طريقتهم في تناول النص الشعري، أظن ان قسماً من شعرنا القديم والحديث لم يقرأ قراءة صحيحة وقد جزأنا، عبر العصور المتعاقبة، قصائد عدة واخضعناها لرغبتنا الشخصية وقابلياتنا الثقافية.

ووجدت ان بعضاً من طرفنا في دراسة النص الادبي يشبه الى حد بعيد عملية معمارية يقوم بها مهندس مخبول، فاذا طلبنا منه ان يقدم تقريراً عن المواد الانشائية لمعمارة انتهى بناؤها حديثاً، عمد الى تهديمها كلياً ليدرّس

كل حجر منفصلاً ثم يعود فيخضع المواد التي شاركت في تماسك البناء الى اختبار فلا نحصل في النهاية الا على حطام مع تقرير ممتاز يشير الى جودة تلك المواد . فبعض الناس ينظر الى الأثر الادبي جملةً جملةً او الى القصيدة بيتاً بيتاً ، لا يستطيع ان يحكم على البناء الا بتهديمه وفحصه مجزأً ، لذا قال قسم من النقاد في معرض تناولهم لنصوص معينة ان الشاعر لو استعمل هذه الكلمة لكان اوقع .. الخ ، انهم يفتحون جزءاً ضئيلاً من الضوء على النص الادبي ويدرسون فقط ذلك الجزء المضاء ثم ينتهون منه فيسلطون الضوء على جزء آخر وهكذا . يقول ابن رشيق : « انا استحسن ان يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج الى ما قبله ولا الى ما بعده »^(٢) ، ولعله يقصد الاستقلال اللغوي او التركيبي ، فلا يصح في القصيدة القديمة ان ينتهي بيت بمبتدأ او فاعل ، خبره او مفعوله في البيت الثاني ، ولكن يجب ان يكون البيت منسجماً والابيات الاخرى لتم وحدة الموضوع ، وان يفهم من خلال القصيدة ، ولا بد من الاستعانة بظروف نظمها واحاسيس صاحبها وقت ابداعها ، ليتضح معناه فيها لا ان تعدد القصيدة ، دوماً ، مجموعة حكم او حقائق او صور منفصلة او تجارب مختصرة ، نجزئها كما نشاء ، ونقتطع منها ما نريد ، ونقرأ البيت الواحد فنقف عنده وكأن لا علاقة بينه وبين الابيات الاخرى ، والقصيدة التي تفتقد وحدة الموضوع حقاً ، ان كانت من الشعر الجيد ، ينتظمها اطار من مشاعر صاحبها ومن نواذعه ودوافعه وتطلعاته وحالته النفسية ، وهذا ما نراه في قصيدة المتنبي ، وفهم هذا الاطار يعوض عن تلك الوحدة ، وما ذنب الشاعر اذا لم تتبث قصيدته في ذهن القارئ وحدة ما ، فيجزئها ابياتاً ويفهمها كما يشاء ولا يكون بمقدوره ان يستوعب فكرة الشاعر كاملة^(٣) . ونعود الى حكم المتنبي ونتخذ من قصيدته التالية مثالا يظهر الى اي مدى تستطيع التجزئة أن تحرب النصوص الادبية ، فهل استطعنا بها ان نفهم قصيدته فهماً جيداً ؟ وهل ادركنا موقفه بوضوح ؟ مع تأكيد ان ما يصح في هذه القصيدة قد لا

يصح مع كل قصائده.

ورد في شرح العكبري ان المتنبي: « قال يعاتب سيف الدولة، وانشدها في محفل من العرب، وكان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدحه شق عليه، واحضر من لا خير فيه، وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يجب، واكثر عليه مرة بعد مرة فقال يعاتبه » (٤) :

واحرَّ قلباهُ من قلبه شِبُّ
ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ
مالي أكتُمُ حباً قد برى جسدي
وتدَّعي حب سيف الدولة الأمم
ان كان يجمعنا حباً لغرته
فليت أنا بقدرِ الحبِ نقسمُ
قد زرتَه وسيوفُ الهندِ مغمدةٌ
وقد نظرتُ اليه والسيوفُ دمُ
فكان أحسنُ خلقِ اللهِ كلهمُ
وكان أحسنَ ما في الأحسنِ الشيمُ
فوتُ العدو الذي يمتسه ظفرُ
في طيه أسفٌ في طيه نعمُ
قد ناب عنك شديدُ الخوفِ واصطنعت
لك المهابة ما لا تصنع بهمُ
ألزمتَ نفسك شيئاً ليس يلزمها
ان لا يواريهم أرض ولا علمُ
أكلها رمت جيشاً فانشى هرباً
تصرفت بسك في آثاره الهممُ
عليك هزمهمُ في كل معتركٍ
وما عليك بهم عارٌ اذا انهزموا

أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر
تصافحت فيه بيضُ الهندِ واللممُ
تحدث الناس عن هذه الابيات وأسهبوا في شرحها واعرابها، ولم ينتبهوا الى التعريض بأصحاب سيف الدولة في البيتين الثاني والثالث، والى ضعف المديح في الابيات الاخرى، مقارنة بينها وبين اماديع المتنبي، والى اقتصار المديح على صفة الشجاعة التي عرفت عن سيف الدولة، ولا قيمة لها في الشعر ان لم يصاحبها الابداع في عرضها، والى تكلف المتنبي في البيت الخامس بأن الممدوح احسن خلق الله، بما هو شائع من اطراء متداول بين أبسط الناس، يوحى الينا بأنه نظم ابيات المديح مرغماً لينتهي الى ما يريد، وان هذه الابيات مقدمة لقصيدة تعاتب وتمدح وتوطيء لثورة الشاعر على سيف الدولة فيتهمه بالجور والظلم، ولكن في ضعف واستخذاء:

يا أعدلُ الناسِ الا في معاملتي
فيك الخصامُ وأنت الخصمُ والحكمُ
وهذا البيت ذكر في مناسبات شتى بعيدة عن مقاصد الشاعر ومناخه النفسي، ولحن وغني وطبقت عليه المقاييس البلاغية، وهو يمثل المطلع والبداية الحقيقية للقصيدة، وما ابيات المديح الا قناع وتغطية ومهارة في التمهيد للهجوم الذي سيقوم به الشاعر في الابيات الاخرى، وكان بمثابة تحفز يهيء له ان يتهم سيف الدولة بالرؤية الكاذبة:

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً
أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه ورمُ
ويشرح الصاحب بن عباد هذا البيت بقوله: «ان نظراتك صادقة فأعيذها ان تمدحك فتحسب الورم شحماً، وهذا المثل اراد به ان لا يقيس من دونه بالمرتبة بمقياسه وان لا يعامله كعاملته، فهو بالنسبة لغيره كالسليم والغير كالسقيم»^(٥).

ولا يلبث ان يوغل في التعريض بقوله :

وما انتفاع اخي الدينا بناظره
اذا استوت عنده الانوار والظلم

وسيف الدولة هو المعني بهذا البيت يصفه الشاعر بانه ظالم، عات، مضلل، لا يفرق بين الصديق والعدو والمزيف والحقيقي والجيد والرديء ولا ينتفع بناظره وادراكه، فأى ثورة هذه التي جعلت الممدوح العظيم، بعد ان ابدع الشاعر في تمجيده، بصدق وإخاء ومودة، يقع في وهدة الغضب والنقمة. واقتطع الناس هذا البيت ورددوه على انه حكمة رائعة في حين انه اهانة واضحة اذا قرأناه جزءاً لا ينفصل عن اطار القصيدة العام، ولم نقتطعه منها فينحسر عنه الاحساس الذي أملى على الشاعر قوله ذاك، وم من المرات قريء هذا البيت منفرداً حكمة خالصة. انه تعبير أدبي غير مباشر ذو حكم عام الا ان الشاعر قصد به شخصاً معيناً بذاته، وهو كالبيت السابق ليس من الحكمة في شيء، واننا اذا جردناه من القصيدة فقد كل رواء وحياة وحرارة ويكتفي العكبري في شرحه له: « وما ينتفع اخو الدنيا بناظره... اذا استوت عنده الصحة والسقم والانوار والظلم، والمعنى: يجب ان تميز بيني وبين غيري ممن لم يبلغ درجتي، كما تميز بين النور والظلمة، وهو منقول من قول الحكيم ارسطوطاليس: اعتدال الامزجة وتساوي اركان الانسان تفرق بين الاشياء واضدادها»^(٦)، اما الصحاح ابن عباد فيشرحه: « ما انتفاع الإنسان بنظره اذا استوت عنده الانوار والظلم؟ ويريد انه يجب التمييز بينه وبين سواه كما يميز بين النور والظلام»^(٧).

ويقول المتنبي:

سيعلم الجمعُ من ضمِّ مجلسنا
بأنني خيرٌ من تسعي به قدمُ

أنا الذي نظرت الاعمى الى أدي
وأسمعت كلماتي من به صمم
أنا ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم
ويشرح العكبري البيت الثاني والثالث: « يريد ان شعره سار في آفاق
البلاد واشتهر حتى تحقق عند الاعمى والاصم فكأن الاعمى رآه لتحقيقه
عنده، وكأن الاصم قد سمعه، ويقول: أنا ساكن القلب، متمكن النوم
لا أعجب بشوارد ما أبدع ولا احفل بنوادر ما انظم»^(٨)، ويرى
البرقوقي: « ان شعره سار في آفاق البلاد واشتهر حتى تحقق عند الاعمى
والاصم أدبه فكأن الاعمى رآه لتحقيقه عنده، وكأن الاصم قد سمعه...
ويقول: انا أنا ملء جفوني عن شوارد الشعر لا احفل بها لأنني ادركها
متى شئت بسهولة...»^(٩).

ولكن الشاعر في هذين البيتين يقدم نفسه الى سيف الدولة ورهطه من
حضروا المجلس، كأنهم لا يدركون من أمره شيئاً بالرغم من السنين التي
قضاها في حلب، بأنه خير من الناس جميعاً ومن سيف الدولة وأصحابه
الذين لا يريد ان يرقى بهم الى مستوى الاعمى والاصم في فهم شعره،
لأنهم، وقت انشاد القصيدة، دون ذلك جهلاً وحقداً، وهذا هجاء مقذع
اتخذ شكل الفخر تسترأ كما اتخذت اهانات المتنبي لسيف الدولة في هذه
القصيدة، شكل الحكمة قناعاً، وقد فضل نفسه، في البيت الاول، على
سيف الدولة وصحبه ايغالا في التحدي، والأبيات الاربعة عشر السابقة
مقدمة وتوطئة لهذا البيت الذي بلغ به الفخر أوجه إثارة لاعدائه وانعكاساً
للاهانة التي لحقته منهم، وهو لا يستطيع طبقاً للتقاليد السائدة ان يبدأ به
القصيدة. ويثور الشاعر بعد ذلك ثورة عارمة ويهدد تهديداً واضحاً:

وجاهلٍ مدّه في جهله ضحكي
حتى أتته يد فراسة وفم

إذا نظرتَ نِوَبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً

فلا تظنن ان الليثَ يبتسمُ

ولكن العكبري يشرح البيت الاول بقوله: « رب جاهل خدعه تركي له في جهله وضحكي منه حتى افترسته بعد زمان فأهلكته... »^(١٠)، ويرى البرقوقي: « انه يغضي عن الجاهل ويحلم الى ان يجازيه ويعصف به »^(١١)، وواضح من هذا الشرح اعتماد البيت مستقلاً عن القصيدة وصاحبها، ولم يسأل الشراح: من يكون هذا الجاهل؟ ويستمر المتنبي في تهديده ويبالغ في شجاعته وان ليس بمقدور أحد التغلب عليه:

ومهجةٍ مهجتي من همِّ صاحبها

ادركتها بجوادٍ ظهره حرمُ

رجلاه في الركض رجلٌ واليدان يد

وفعله ما تريد الكفُّ والقدمُ

ومرهفٍ سرتُ بين الجحفلين به

حتى صربتُ وموج الموت يلتطمُ

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني

والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

صحبت في الفلوات الوحشَ منفرداً

حتى تعجب مني القوورُ والأئمُّ

ثم يعاتب بمرارة وبأسف ويتهم سيف الدولة بأنه لا يحفظ ذمة ولا يرعى عهداً:

يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم

وجداننا كلَّ شيءٍ بعدكم عدمُ

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة

لو أن امرم من أمرنا أممُ

ان كان سرّكم ما قال حاسدنا
فما لجرح اذا ارضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
ان المعارف في اهل النهي ذم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم
وتفضي الابيات الثلاثة الاولى بأن الشاعر ما زال وفياً لسيف الدولة
وانه لا يريد الفراق الا مكرهاً وان ذلك الفراق سيصيبه بجزن عميق يريه
الحياة عدما والاشياء خاوية، ولكنه سرعان ما يعود الى صوته الاول
فيقول: ان بينه وبين سيف الدولة معرفة، لا يرعاها، وان المعارف ذم
ولكن في أهل النهي والعقول، فسيف الدولة، اذن ليس منهم، وهذا هجاء
خفي وليس حكمة او مثلاً سائراً. ويتحدى الحساد والوشاة ان يجدوا فيه
عيباً ثم يفخر بنفسه ويعتد بها كثيراً وهو في حضرة الامير امعناً في
اغاظته واهانة مجلسه:

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواعقه
يزيلهن الى من عنده الديم
ويهدد بان الندم سيحيق بسيف الدولة ورهطه اذا ما فارقهم الشاعر:

ارى النوى تقتضيني كلّ مرحلة
لا تستقل بها الوخّادة الرسم
لئن تركن ضميراً عن ميامننا
ليحدثن لمن ودعتهم ندم
اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون هم

ويعدُّ الصاحب بن عباد البيت الأخير من الامثال ويشرحه: « اذا رحلت عن قوم وهم قادرون على اكرامك منعا لك من الرحيل، فكأنهم هم المسبيون فيه والذين اختاروا الفراق الذي لجأت اليه مضطرا مكرها»^(١٢) ويرى الحاتمي ان المتنبي اخذ هذا البيت من قول ارسطو: « من لم يردك لنفسه، فهو النائي عنك، وان كنت قريبا منه، ومن يردك لنفسك فأنت قريب منه، وان تباعدت أنت عنه»^(١٣).

وبعد ان يقول الشاعر:

شَرُّ البلادِ مكانٌ لا صديقَ به
وشَرُّ ما يكسبُ الانسانُ ما يصمُ

يصل الى قمة غليانه النفسي فيقرر انه في كل هذه السنين الطويلة كان يمارس اعمالا لا تتلاءم وشاعريته ومنزلته وانه اهان نفسه وأهدر طاقاتها في سوق مدائح الملوك الذين لا قدرة لهم على التمييز بين الصالح والطالح: « وان هبات سيف الدولة وان كثرت على جلالتها وسعتها: لا تعادل تقصيره في حقه وايثاره لحساده»^(١٤)، وان ما حصل عليه الشاعر من جوائز تساوي فيه مع حاسديه ومناوئيه، وكيف يجوز لسيف الدولة ان يستمع الى أناس لا قيمة لهم، وعنده الشاعر الكبير الذي اضطر الى العتاب والتعريض بممدوحه لعله يذل الحساد ويمنع القطيعة والفراق:

وشَرُّ ما قنصتُه راحتي قَنَصٌ
شهبُ البزاة سواء فيه والرخمُ
بأي لفظٍ تقول الشعرَ زعنفةً
تجوز عندك لا عُرْبٌ ولا عجمُ
هذا عتابُك الا انه مَقَّةٌ
قد ضُمَّنَ الدرَّ الا انه كلمُ

فاين أبيات هذه القصيدة، في دراساتنا المختلفة، من اطارها العام

وثورة صاحبها النفسية؟ ان هواة جمع النصائح والامثال والحكم قد جزأوها وحفظوا بعض ابياتها ليزخرفوا بها احاديثهم اليومية: «وما من كاتب او خطيب او متكلم او مناظر أو مدرس الا وله من حكم المتنبي مدد اي مدد»^(١٥)، ولم تنبه محاولة جدية لاغتيال الشاعر بعد القاء هذه القصيدة، الى معرفة الاسباب الكامنة وراء ذلك، والى الالهانات التي تضمنتها ابياتها، فالمتنبي لم يكن بوسعها ان ينهي لمخاطبه مباشرة انه لا يميز بين الغث والسمين ولا يفرق بين الجيد والرديء لذا لجأ الى ما عددناه نحن من الحكم خطأ فقال:

وما انتفاعُ اخي الدنيا بناظره

اذا استوت عنده الانوارُ والظلم

واذا جردنا هذا البيت من القصيدة وظروف نظمها وأحاسيس صاحبها اتخذ شكل حكمة، في حين انه اهانة وهجاء واضح، وقد تتبع طريقة الشاعر ذاتها في حياتنا اليومية، اذا اردنا ان نعبر عن معنى نخشى ان يجر عواقب، فنغلفه باطار حكمي معين يمويه ذلك المعنى على نحو ما، ولكن هذا الامر لم يكن بمقدوره الشراح استيعابه، لتجزئة في اذهانهم ومواقفهم من الشعر الذي يفهمونه بيتاً بيتاً، والمتنبي لم يكن في هذه القصيدة صائغ حكم اراد ان يرسل منها جمهرة ليستعملها الناس عند الحاجة ولينتفعوا بها فكأنهم يقرأون انفسهم فيما قاله الشعراء ويفهمون من المعاني ما يتفق وهواهم ولا أظن ان المتنبي كان ينظم الافكار التجريدية الدائرة في أذهان الناس حكماً: «وعني الشاعر العباسي في مدحته بالحكم... حتى كان المتنبي فبلغ بها الغاية التي ليس وراءها غاية، وكأنه صاغ للناس كل ما يمكن ان يجري في خواطرهم... ولا يكاد يوجد اديب عربي منذ عصره الا وهو يحفظ من حكمه ويستشهد بها في معارض كتاباته واحاديثه»^(١٦)، فلم يكن الشعراء العباسيون جميعاً من المداحين، ولم تتضمن قصائد المديح دائماً حكماً، وعدَّ المتنبي، بالرغم من هذا وذاك، صاحب أمثال جمعها له

الصاحب بن عباد لأنها «فصوص» شعره فهي تمثل «لب اللب»^(١٧)، والرسالة الحاتمية لم تخدم مجد المتنبي، ولكنها شجعت على تجزئة تراثه الشعري وبعثرته: «ثم ان هذه الرسالة - مهما يكن قصد مؤلفها - قد خدمت مجد المتنبي اذ لفتت النظر الى ما في شعره من آراء فلسفية، وهذا ما رأته الاجيال المتعاقبة ميزة خاصة للمتنبي، ومن المعلوم ان العقلية السامية بوجه عام تميل الى الحكم المركزة»^(١٨)، يقول الحاتمي في رسالته: «ووجدنا ابا الطيب، احمد بن الحسين، المتنبي، قد أتى في شعره باغراض فلسفية، ومعانٍ منطقية، فان كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث، فقد اغرق في درس العلوم، وان يك ذلك منه على سبيل الاتفاق، فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ الغريبة، وهو في الحالتين على غاية من الفضل وسبيل نهاية من النبل»^(١٩).

ويقول الزمخشري: «ولا كالمتنبي بين الشعراء من كانت اقواله مضرب المثل، لما حوته من الفصاحة وحسن البيان، ولهذا اخترنا لك الابيات التي جمعها الوزير اسماعيل بن عباد لسلطانه فخر الدولة بن بويه، لقيمتها الادبية ولأنها حلية تزين بها رسالاتك، ومجالسك، وتعرض لك في كل مناسبة من المناسبات وقد قدمنا لكل بيت شرحاً وجيزاً... والله موفق»^(٢٠)، ويطري الثعالبي قصيدة (واحر قلباه) بان أكثر ابياتها مستقلة بذاتها!! وانها بارعة لولا اساءة للادب فيها: «وهي على براعتها واستقلال اكثر ابياتها بانفسها تكاد تدخل في باب اساءة الادب بالادب»^(٢١).

«ان امثال المتنبي لو اقتطعت من ديوانه لكانت في ذاتها ديوانا يعجز اي شاعر فحل ان يأتي بمثله»^(٢٢)، «اما شعره الحكمي فليس له مكان خاص في ديوانه بل انه يتسرب فيه من أوله الى آخره. ولذلك يجب على الناقد ان يؤلف من هذه المتفرقات المتشتتة مجموعة مرتبطة الاجزاء جديرة بان تمنح الشاعر لقب الحكيم. اما حكمته فعلية مجالها الاخلاق وتصوير حالات النفس»^(٢٣)، «واذا خلد المتنبي، فان الذي يخلده، انما هي تلك

الحكم الرائعة التي استفاضت في شعره، فاستشهد الناس بها، بحسب ما يقتضيه مقام الاستشهاد، فكأن ابا الطيب لسان حال البشر بأجمعهم، فقد يقذف المتنبي في بيت او في بيتين مذهبا فلسفياً أو علمياً، يشغل به المفكرون كل حياتهم»^(٢٤) ويرى ماسنيون: «انه يوجد هنا وهناك عند المتنبي، حكم ذات ايجاز مؤثر، ومعرفة بالنفس قوية»^(٢٥).

اما ذلك الحوار الذي تذكره الكتب القديمة من ان ابا فراس كان حاضرا مجلس سيف الدولة وبدأ يعترض على القصيدة ويرد أكثر عيونها الى أصول جاهلية واسلامية ويتهم المتنبي بالسرقة، والشاعر لا يأبه له ويستمر في إلقاء قصيدته، فتكثر دعاويه فيها فيضربه سيف الدولة بالدواة ثم يسترضيه، فأمر موضوع اختلقه أحد خصوم المتنبي، وقد ذهب الى هذا الرأي قسم من النقاد ومؤرخي الادب^(٢٦).

ويقول محمد مهدي البصير: «على انه من المهم ان نعرف السبب الذي يدفع المتنبي الى تسجيل خطراته النفسية في كثير من قصائده ومقطوعاته، أهو الرغبة في تقرير مذهب فلسفي ام هو الرغبة في تأييد وجهة نظر يقتضيهامديح ممدوح او الترفيه عن خاطر صديق مكدود او التعبير عن عاطفة مكبوتة وشعور مكظوم؟ انك اذا رجعت الى ديوانه وتدبرت حكمه وامثاله وتأملت طويلا رأيت ان السبب الثاني هو الذي يملها عليه»^(٢٧).

ويرى محمود محمد شاكر: «ان لكل حكمة في شعره اصلاً تاريخياً في قلب هذا الشاعر الذي لم يكن قلبه ينسى شيئاً أو يفلته، وكأني به - وهو يقول البيت السائر والمثل الشرود - كانت تتراءى تحت عينيه، وبدوي في سمعه، كل ما مر به مما أثر فيه، فيقول البيت وفي كل لفظة منه سبب ممدود الى ذكرى يذكرها او فكرة يتخيلها»^(٢٨).

اننا لا نستطيع ان نتفهم الشعر جيداً اذا قرأنا القصائد مجزأة ومقطعة

وبعثنا ابياتها حكماً متفرقة وامثلة بلاغية او نحوية او عروضية، لقد ردد فريق من الناس ابياتاً في بعض المناسبات، دون ان يفهموها، لا لأنهم اعجبوا بها وعاشوا تجربتها وانما ليظفروا براعتهم اللغوية والادبية ويرصعوا احاديثهم اليومية بها. ان البيت الذي نقرأه بعيداً عن القصيدة هو جزء مقتطع منها جردناه من اصله ومن جو القصيدة العام، وقد ضاع شعر وتبدد ابداع في خضم هائل من التجزئة الدائمة، وقد عرف عن بعض الشعراء القدامى انهم لم يرتضوا ان يقطعوا أو يسقطوا أي بيت من قصائدهم، وقيل عن أبي تمام إنه: « كان يأتي بالقصيدة البديعة وفيها البيت الرذل فيتمسك به ولا يرى إسقاطه »^(٢٩).

وشوه صفي الدين الحلي أبيات قصيدة (واحر قلباه) وأبياتاً أخرى من لامية الطغرائي بتشطير يضم صدرا من هذه وعجزا من تلك، فأهان الشاعرين والتجربتين وأضر بالقصيدتين وافصح عن عبث لا داعي له. وبالرغم من ذلك قيل: انه كان بارعا في عمله هذا^(٣٠)، فأى فهم للشعر، عند صفي الدين او غيره، يمكن ان يبرر هذا التشويه:

قل للخلي الذي قد نام عن سهري
ومن بجسمي وحالي عنده سقمُ
تنامُ عيني وعينُ النجم ساهرة
واحرَّ قلباه ممن قلبه شمُ
فالحبُّ حيث العدى والأسدُ رابضة
فليت أنا بقدر الحب نقتسمُ
حبَّ السلامةِ يثني هم صاحبه
إذا استوت عنده الأنوار والظلمُ
أهبتُ بالخط لو ناديتُ مستمعاً
وأسمعت كلماتي من به صممُ

وحسنُ ظنك بالايام معجزةً

ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ

ان اقتطاع جزء من قصيدة يميت فيه حيويته ويفصله عن جذوره كاقطاع اي عضو من كائن حي، وحتى القصائد التي تفتقد وحدة الموضوع يجب ان تقرأ كاملةً وان تفكر بأحاسيس قائلها وتجربته، ولا بد من علاقة تربط بين الموضوعات التي تناوّلها القصيدة، وهذه العلاقة هي الشاعر نفسه، وعلينا الا نتناساه، ومن حقه ان نفهمه، ولكل قصيدة اطار ينتظم ابياتها، مهما تعددت اغراضها، يقول طه حسين: «ومن اخص العيوب التي يؤخذ بها النقاد الذين نقدوا ابا تمام والبحري والمنتبي انكم لا تجدون أحداً من هؤلاء النقاد ينقد القصيدة من حيث هي قصيدة، فهم اذا قرأوا اجل قصائد ابي تمام والبحري والمنتبي لا ينظرون اليها جملة، كيف استقامت الفاظها ومعانيها واسلوبها، وانما يقفون عند البيت والبيتين، أجاد الشاعر في هذا التشبيه ام لم يجد؟ أوفق في هذا التعبير ام لم يوفق؟ وما هكذا نتصور المثل الاعلى للنقد الأدبي» (٣١).

ونصبح بعيدين عن الابداع في أدبنا، بتجزئتنا لنصوصه، وعجالتنا في فهمه، ولا بد لنا ان نتمثل تجربة الشعراء، وان نستوعبها كاملة، وان ندركها بأناة وصبر، والا نضفي عليها اشياء غريبة من ذواتنا فنحولها عن حقيقتها.

(١) نشر هذا البحث مختصراً في مجلة الجامعة المستنصرية، العدد ٢، بغداد ١٩٧١، وجرى عليه تغيير وتنقيح، ويعاد نشره هنا لأهميته بالنسبة الى الشاعر وتراثه الشعري وفهمنا أياه.

(٢) ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج ١، القاهرة ١٩٠٧، ص ١٧٥.

(٣) ينظر: بحث المؤلف عن وحدة الموضوع في مجلة المورد، العدد الثاني، المجلد الرابع، بغداد ١٩٧٥، ص ٢١ وما بعدها.

- (٤) المكبري ٣-٣٦٢. ويرى طه حسين: أن القدماء والمحدثين قد أكثروا من الحديث عن هذه القصيدة وان من يدرسها لن يأتي بجديد، ينظر: مع المتنبي، القاهرة ١٩٦٠، ص ٢٤٢.
- (٥) أمثال المتنبي، جمعها الوزير اسماعيل بن عباد المشهور بالصاحب لسلطانه فخر الدولة بن بويه، شرحها وضبط الفاظها وعلق عليها زهدي يكن، صيدا بلا تاريخ، ص ١٥٠.
- (٦) المكبري ٣-٣٦٧.
- (٧) أمثال المتنبي ١٥١.
- (٨) المكبري ٣-٣٦٧، ٣٦٨.
- (٩) شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، ج ٤، ط ٢، القاهرة ١٩٣٨، ص ١٠٨، ١٠٩.
- (١٠) المكبري ٣-٣٦٨.
- (١١) البرقوقي ٤-١١٠.
- (١٢) أمثال المتنبي ١٥١.
- (١٣) الحائمي، الرسالة الحافمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو في الحكمة، تحقيق فؤاد افرام البستاني، بيروت ١٩٣١، ص ٣٠.
- (١٤) المكبري ٣-٣٧٣.
- (١٥) أحد الاسكندري، الوسيط في الادب العربي وتاريخه، ط ١٦، القاهرة بلا تاريخ، ص ٢٧٤.
- (١٦) د. شوقي ضيف، المجلة، العدد ٩٧، القاهرة ١٩٦٥، ص ٣٦.
- (١٧) أمثال المتنبي ٤.
- (١٨) د. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، القاهرة ١٩٤٨، ص ٢٠٨.
- (١٩) الرسالة الحافمية ٢٣.
- (٢٠) امثال المتنبي ٥.
- (٢١) الثعالبي، يتيمة الدهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٣، القاهرة ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٠٨.
- (٢٢) محمد عبد الفتاح ابراهيم، المتنبي، القاهرة ١٩٣٥، ص ٦٤.
- (٢٣) محمد كمال حلمي، ابو الطيب المتنبي، القاهرة ١٩٢١، ص ٢.
- (٢٤) الرأي لشفيق جبري، ينظر: بلاشير، ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين، ترجمة احمد احد بدوي، القاهرة بلا تاريخ، ص ١٦٨.
- (٢٥) المصدر السابق ١٠٣.
- (٢٦) ينظر: محمد مهدي البصير، في الادب العباسي، بغداد ١٩٤٩، ص ٣٤٤. ومندور ١٦٥، ١٦٦. ويقول طه حسين: «وليس من شك في أن هذه القصة قد ألفت تأليفاً»

= في وقت متأخر، ولكنها على كل حال تعطي ظلالاً لما كان في مجلس سيف الدولة حين
انشدت هذه القصيدة»، مع المتنبي ٢٦٣.

(٢٧) البصير ٣٨٤.

(٢٨) شاعر ٧٦.

(٢٩) أبو الفرج الإصهاني، الأغاني، كتاب التحرير، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٧٣٨.

(٣٠) ديوان صفي الدين الحلي، دار صادر، بيروت ١٩٦٢، ص ٥٤.

(٣١) طه حسين، من حديث الشعر والنثر، القاهرة ١٩٣٦، ص ١٧٨.

رثاء الانسان

ليس المتنبي حكيماً في أبيات مفردة أو أنصاف أبيات اقتطعها الشراح من قصائد متكاملة بمضمونها، ووضعوا لها قوائم، واعجبوا بما اكتشفوا وجزأوا، وحفظها الناس ورددوها كما يشاؤون، على وفق رغباتهم الشخصية. وأفقدوها رواءها وحيويتها ومعناها، ولكن يمكن ان يصبح المتنبي حكيماً في موقفه من الزمن^(١)، وصراعه مع الدهر ورثائه للانسان! ان كنا نؤمن بأن الشعر يصنع الحكمة وان الشاعر البارع يجب أن يكون حكيماً، والا نرى في الحكمة، بمنطقها العقلي البارد المجرد، ومعادلاتها المتزنة، تضاداً مع شاعرية تضرب في اعماق احساس الانسان بعيدا عن الامثال والنصائح والحقائق الثابتة التي تتحول إلى عزاء رخيص لمن ابتعد عن نوازع الرفعة، وأحس بأسف على نفسه لأنانية فيه تود ان تستحوذ على الدنيا، ولم يستهوه شرف المحاولة، وفيض الامتزاج بين الانسان والكون، ولم يعان من لغز الحياة المحير ولم يضمنه نقصه عن بلوغ كمال المعرفة فيتطلع الى آفاق جديدة وريادة دائمة.

والمتنبي، إن كان حكيماً، نفتقد حكمته، بمفهومها المتداول الشائع، في أفكاره ومواقفه وأحداث حياته، ولكنه شاعر ومفكر وانسان له خطرات وتأملات ذهنية وفلسفية، لا نبحث عنها في انصاف ابيات، ولكن في شعره جميعاً، ونجد جزءاً كبيراً منها في رثائه للانسان، او رثائه لنفسه،

دون ان يحظى هذا الموضوع باهتمام كبير من شعراء سابقين .

يمزج ابو الطيب رثاءه باحساس صادق وبموقف ازاء الموت تخالطه الدهشة والحيرة، فيرثي في مراثيه نفسه والآخرين، ويأسى للمصير الفاجع الذي يتسرب الى حياتنا ببطء وهدوء، يوماً بعد يوم، يجرمنا من أحبائنا، ثم لا يلبث ان يطوينا في غيابه، ولكنه يدرك أهمية توارث الاجيال، وتبادل المواقع بين البشر، وتجدد الحياة بالموت، ويرى، بشاعرية نافذة، ان الاغتصاب قائم بين قادم وراحل، والنضال خفي واقع بين جديد وقديم، يستلب الانسان بقاءه من اسلافه، ولا معنى للحياة بلا موت، ولا للشجاعة والكرم والصبر ولكن ان يأتي الموت الانسان بعد سنين طويلة (٢) :

وقد فارق الناسُ الاحبَّةَ قبلنا
وأعيى دواء الموت كلَّ طبيبٍ
سبقنا الى الدنيا فلو عاشَ أهلها
منعنا بها من جيئة وذهوبِ
تملكها الآتي تملكُ سالبِ
وفارقها الماضي فراقَ سلبِ
ولا فَضَلَ فيها للشجاعة والندي
وصبرُ الفتى لولا لقاء شعوبِ
وأوفى حياة الغابرين لصاحبِ
حياةً امرىء خائنه بعد مشيبِ

وبما أن الموت نهاية محتمة، يعود الشاعر فيرى أن طول العمر وقصره
سيان (٣) :

كثيرُ حياة المرء مثلُ قليلها
يزول وباقى عمره مثل ذاهبِ

وتلك هي سنة الحياة^(٤) :

على ذا مضى الناس اجتماعٌ وفرقةٌ
وميّتٌ ومولودٌ وقالٍ ووامقٌ

فيدعو الى انتهاب اللذات وان يقتنص الانسان ما يستطيع من هذه
الدنيا فهي وحدها ما يملك^(٥) :

دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها
فمفترقٌ جاران دارهما العمُرُ
ويرى الموت ضرباً من قتلٍ واغتيالٍ^(٦) :

اذا ما تأملت الزمان وصرفه
تيقنت ان الموت ضرب من القتلِ
والغدر من صفاته^(٧) :

غدرت يا موت كم أفنيت من عددٍ
بمن أصبتٍ وكم أسكتت من لجب

وهو سارق ولص أوجدته وحتته نواميس هذا الكون وقوانينه^(٨) :

وما الموتُ الا سارقٌ دق شخصه
يصول بلا كفٍ ويسعى بلا رجلٍ

وتسترد هذه الدنيا ما تهب دوماً، وليتها بخلت بما وهبت، ويدعو الى
العدم ما دام الفناء نهايتها، وبالرغم من غدرها وخيانتها تظل معشوقة،
دون ان تحفظ عهداً او تتمم وصلاً، والانسان لا يمل هذه الحياة، والخلود
فيها محال^(٩) :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس وأشهى من أن يمل وأحلى
أبداً تسترد ما تهب الدنيا فيا ليت جودها كان بخلا
وهي معشوقة على الغدر لا تحفظ عهدا ولا تتمم وصلا

ويدعو الانسان ان يُضرب عن الجنس في حياة نهايتها الموت فتنجو
الأجيال القادمة من المصير المؤلم ببقائها في عالم الغيب، لا حياة ولا ممات
ولا سعادة ولا شقاء^(١٠) :

وما الدهرُ أهلٌ أن تؤمل عنده
حياة وان يشتاق فيه الى النسل

وغرور الانسان حق وجهل، ما دام الموت يجثم على صدره، ويضع
الشاعر أمامنا مصير الاكاسرة الذين كمنزوا الكنوز، واذا بكل ذلك
هباء وعبث، حواهم قبر وأحال رفاتهم الى تراب تذروه الرياح، بعد أن
ضاق الفضاء بجيوشهم وجبروتهم فغفلوا عن هذه الدنيا وغدراها ومصيرهم
فيها، ثم سكتوا بعد أن ملأوا الكون صحبا وضجيجا^(١١) :

أبني أبنينا نحن أهلٌ منازل
أبدًا غراب البين فيها ينعقُ
نبكي على الدنيا وما من معشرٍ
جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
ابن الاكاسرة الجبابرة الألى
كنزوا الكنوزَ فما بقيت وما بقوا
من كلِّ من ضاق الفضاء بجيشه
حتى ثوى فحواه لحدّ ضيقُ
خرسٌ اذا نودوا كأن لم يعلموا
أن الكلامَ لهم حلال مطلقُ
والموتُ آتٍ والنفوسُ نفائسُ
والمستغرُّ بما لديه الأحقُ

وفي عالم يزول فيه الجبابرة، وتمحي آلاف الجموع، وتبقى فيه الآثار
شاهدة على اصحابها، وما تلبث ان تندثر في دورات الانحلال والعدم، لا

تصفو الحياة الالجاهل او غافل او ميت حي ، ليس لأبعاد الزمن عنده من ماضٍ وحاضرٍ وآتٍ معنى ، ارتضى لانسانيته ان تكون سائبة ، فتمنى البقاء وتطلّع الى المحال وعاش في الحلم والوهم فزاد طمعاً وطمعاً وعناية^(١٣) :

وتصفو الحياة لجاهلٍ او غافلٍ
عما مضى فيها وما يتوقعُ
ولمن يغالطُ في الحقائق نفسه

ويسومها طلب المحال فتطمعُ
أين الذي الهرمان من بنيانه
ما قومُه ما يومُه ما المصرعُ
تتخلف الآثارُ عن اصحابها
حيناً ويدركها الفناء فتتبعُ
وهناك امثلة تدور بين الناس لحياة كالموت ، وموت كالحياة^(١٣) :

في الناس امثلةٌ تدور حياتها
كماتها ومماتها كحياتها
فالحياة عملية دفن دائبة يتبادلها البشر فيما بينهم ، لا توقف فيها ، وكان
الاجيال مواكب يشيع الواحد منها الآخر ، والدنيا مأمم دائم^(١٤) :

يدفنُ بعضنا بعضاً وتمشي
أواخرُنا على هامِ الاوالى
وحين يألف الانسان الحياة يجد الموت مرأً شديداً ، وما فائدة الخوف
من الموت الذي يميت معه ايضاً نوازع الخشية والفرع منه^(١٥) :

إلفُ هذا الهواء أوقعُ في الأنف
فس أن الحامم مسرُّ المذاقِ
والأسى قبل فرقة الروح عجزُ
والأسى لا يكون بعد الفراق

ويستغرق رثاء الانسان من الشاعر ابياتا وقصائد ويرى ان الناس بنو الموتى، يجزعون من أقوى وشائج ما اقترن بوجودهم، ويبخلون بما لا يملكون ولا بد من ضجعة ابدية، تنسي ما كان وما يكون، يتساوى بها الجاهل والعاقل والقوي والضعيف والعظيم والحقير، وتغدو بدييات هذه الحياة ضربا من فلسفة وحكمة^(١٦) :

لا بد للانسان من ضجعةٍ لا تقلب المضجعَ عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبهِ وما أذاق الموتُ من كربه
نحن بنو الموتى فما بالناس نعافُ ما لا بد من شربه
تبخل ايدينا بأرواحنا على زمان هي من كسبه
فهذه الارواحُ من جوه وهذه الأجسامُ من تربه
لو فكر العاشقُ في منتهى حسن الذي يسيبه لم يسه
يموت راعي الضأن في جهله موتةَ جالينوسَ في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سربه

والامثلة كثيرة ولا نستطيع ان نملأ بها صفحات وصفحات. وشعراء سابقون لم يفتهم ما جال في ذهن المتنبي من خواطر، منهم: زهير وطرفة وبعض العباسيين، ولكن المتنبي استطاع ان يقدم افكاره بأطر خاصة، وبهذا يمكن ان نسميه حكيمًا، إن أصررنا على الاصطلاح، وبما ان الشعر فكر واحساس وموهبة ورؤية، فلا بد ان يتناول شعراء موضوعات تهم الانسان ووجوده ومصيره، ولا نرى في ذلك عجبًا، فان ابتعدوا عن انسانيتهم في اشعارهم اثاروا الدهشة. ويحمل الشعراء الناس على التأمل في قضايا هذا الكون، ويتحفظهم الفلاسفة بأفكارهم، ويبدع العلماء تجارب، وتتصافر جهود البشر للكشف عن المجهول، فيضرب الانسان في متاهة هذا الكون، ويتقدم خطوات اخرى في عوالمه اللامتناهية. فهل كان المتنبي حكيمًا في انصاف ابياته؟ ام انه مفكر ومبدع وفنان في شعره جميعًا، اضناه حزن العالم، وكان للموت في مراثيه جانبان، أولهما يفتح عن أسى حقيقي

لفقيد ترك في نفسه أثراً لا يمحي وحسرة ولوعة، فإليه والى ذلك الحزن ينظم شعراً، كما نجد في رثائه لخولة ولجده. وحين تفرض الظروف عليه مرثي لمناسبات طارئة، يحتمها عزاء رسمي ومشاركة وجدانية لا مفرّ منها، نراه يهرب من رثاء فرد لا قيمة لموته عنده الى رثاء الانسان، تفصح عن ذلك قصائد: يماك التركي وأم سيف الدولة وأخته الصغرى وغيرها، وحين تعوزه التجربة الخاصة والاحساس الحقيقي، لا يفتقد التجربة العامة الشاملة التي تلف بأبعادها البشرية جمعاء .

-
- (١) ينظر للمؤلف: الشعر والزمن، منشورات وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٥، وفيه فصل خاص عن المتنبي وموقفه من الزمن وتأملاته الفكرية، ص ٣٩ وما بعدها.
- (٢) - (١٦) الديوان، ج ١، ص ٤٩، ١٥٠ ج ٢، ص ٣٤٢، ١٤٨ ج ٣، ص ٥١.
- ج ١، ص ٨٧ ج ٣، ص ٤٨، ١٢٩، ٥٢ ج ٢، ص ٣٣٤، ٢٦٩ ج ١، ٢٣٥.
- ج ٣، ص ١٨ ج ٢، ص ٣٦٩ ج ١، ص ٢١١.

صفات السيف والنزعة الحربية في شعر المتنبي

احتفل المتنبي، في شعره وحياته، بالسيف كثيراً، وكانت له مكانة غالية وسطوة وفعل، وصفات واجواء. يكاد ينطق، يحزن ويفرح، يشجع ويخاف لا نخطيء صليله وبريقه ورهافته. يظهر في القصائد مع الورد والحبيبة والكأس. يصاحب الشاعر صديقاً وانياً، في حلّه وترحاله، قبل ان تكون له صولة وجولة في الحروب والغزوات، ويحيله رمزاً للرفعة، يهديه في دروب المجد، ويحبه، ويقبله، ويمسحه بحنان ما حظيب به امرأة وكأنه ولد مع الشاعر وخبر الحياة بتجاربه، ولم يفارق جنبه ولم يغادر مضجعه، استقطب كل تطلعاته، واصبح بؤرة طموحه اللامتناهي، وهبط في الحلم والواقع على رقاب الاعداء والمناوئين. ولا أظن ان السيف نال من شاعر عربي او غير عربي ما بوأه المتنبي من منزلة، فقد تردد مئات المرات في قصائده، وصارت له طقوس واحوال خاصة. ومما زاد السيف مكانة في شعره انه لقب لأكبر ممدوحيه شأنأ، وأكثرهم تأثيراً وفاعلية في شعره وحياته ولمحارب شجاع، حفظ له التاريخ مواقف وجولات في عالم البطولة: «وكان قد جمع ما تراكم عليه من عجاج الحرب فصنع منه لبنة وأوصى ان توضع تحت رأسه في قبره»^(١)، وقامت مقارنة بين سيف الدولة شخصاً والسيف سلاحاً، وأوغل الشاعر في ذلك ووجد مجالاً يرضي رغبة القتال عنده ونوازع التفوق والقوة^(٢):

فلا تعجبنا ان السيوف كثيرة
ولكن سيف الدولة اليوم واحداً
له من كريم الطبع في الحرب منتضى
ومن عادة الاحسان والصفح غامد
ولا تنحسر دولة السيف عند المتني الا اذا تمت المقارنة بينه وبين سيف
الدولة (٢) ، وقد يمتزج الاثنان فلا تكاد تفرق بينهما (٤) :

هماً اذا ما فارق الغمد سيفه
وعاينته لم تدر أيهما النصل
وإذا ما سماه تكاد السيوف تبسم في أغمادها تيهاً وزهواً (٥) :

ذا نحن سميناك خلنا سيوفنا
من التيه في أغمادها تبسم

وحين يتعد السيف عن سميهِ المدوح ، يستعيد المكانة السامقة عند
الشاعر الذي يعيد سيرة عنتره فيحيل اليه امرأة: « سلي عن سرتي فرسي
وسيفي » (٦) ، ويصف حبيبة رائعة الجمال حلت عنقها بسيف من الصد اذا
هم بالضرب اتقاه الشاعر بدرع من التجلد والصبر (٧) :

وشادنٍ روح من يهواه في يده
سيف الصدود على أعلى مقلده
ما اهتز منه على عضو ليتره
الا اتقاه بترسٍ من تجلده

ويبدأ قصيدة مديح بأربعة عشر بيتاً في وصف سيفه الذي يتنى ان
تصبح عينه غمداً له (٨) :

والياني آلذي لو اسطعتُ كانت
مقلتي غمدهُ من الاعزاز

وبعجب بمدوح، فقد السيوف المجردة من أغمادها أشد عليه من فقد أحبته^(٩) :

وأمرٌ من فقدِ الأُحبة عنده
فقدُ السيوفِ الفاقاتِ الأُجفنا
ويشبه نفسه بالسيف ويطلب من أحد ممدوحيه ان يبلوه ليجره
ويصطنعه^(١٠) ، والشاعر يمثل جزءًا يتكامل مع فرسه وسيفه بمزيج لا
انفصام بعده: « وذرنى واياه وطرفي وذابلي، نكن واحدا... »^(١١) ، وتقرّ
دولة الاقلام باندحارها وينتصر السيف^(١٢) :

حتى رجعت وأقلامي قوائلُ لي
المجدُ للسيفِ ليس المجدُ للقلمِ
فيتمّنى ان يمتد به العمر لتصبح الحرب أمه والسيف أباه والرمح أخاه
لا يخشى للموت جولة اذا ما تحققت هذه الاماني^(١٣) :

وان عمّرت جعلت الحربَ والدّة
والسمهريّ أخاً والمشرقيّ أباً
فلا نعجب حين نرى تقبيل السيف أول عمل يقوم به بعد أن يخلص
من مصر وكافور ويجتاز المهامه والقفار وخطر اللحاق به وقتله يطارده في
كل مكان^(١٤) :

وردنا الرهيمّة في جوزه وباقيه اكثر مما مضى
فلما أنخنا ركزنا الرماح فوق مكارمنا والعلى
وثبنا نقبلُ لاسيافنا ونمسحها من دماء العدا
والامثلة كثيرة. فلا تخلو قصيدة من سيف، وحتى في موضع الرثاء،
يتذكر الشاعر ان الناس يعدون ويهيئون الاسلحة المتنوعة فيغتلهم الموت بلا
قتال^(١٥) ، وصفات السيف متنوعة، وله كالبشر آجال، وآباء وأجداد من

المعادن التي بامتزاجها يتكوّن الحديد، وله ايضاً حسب ونسب، ولذبابه طعم، ينتقم حين يرى الاعداء قلة، ويجوع ويأكل الهام والرقاب، وحين يقطع الرؤوس ويصل الى العظام يصدح بالغناء، ويضاحكه نور الشمس، ويمجد ويشكر اليد التي تحمله، ويفخر على الرماح ويشتمها ويعيرها انها تطعن من بعيد وتدخل السيوف مع المنايا في رهان فتسبق وتنتصر، وقد يمسه السأم من طول الضرب... الخ^(١٦).

ولا يعدم الغمد مكانة في شعره، يبكي على النصل حين يجرده الفارس لأنه يتسربل بالدم ويغمد في الرقاب^(١٧):

تبكي على الأنصل الغمودُ اذا أنذرها أنه يجردها
لعلمها أنها تصيرُ دماً وانه في الرقاب يغمدها

وتكاد الروح العسكرية تطفئ، في حياة المتنبي وشعره، والنزعة الحربية تسود، فالعصر عصر بطولات، لا كرامة فيه للضعيف، والحروب والغزوات تتوالى يوماً بعد يوم، والغلبة للقوي^(١٨):

عشْ عَزِيْزاً وَأَنْتِ كَرِيْمٌ
بين طعنِ القنا وخفقِ البنودِ
فرؤوسُ الرماحِ أذهبُ للغيا
ظِ وأشفى لغلِ صدرِ الحقودِ

ويولد المتنبي، وقعة الاعنة وصهيل الخيول وغبار الوقائع وصليل السيوف يصدع الآذان ويملاً الآفاق، والجيوش تتحرك في كل مكان، ولا يجد الا للمقاتلين، ومعدات الحرب تقدم للناس اسباب المنعة والجاه والغنى والسطوة والحكم، ولا قانون يحمي الفرد سوى السيف، والجن صفة مرذولة بين الناس، لا يلتقى صاحبها غير الهوان والاحتقار، وتولد مع المتنبي آماله الكبار: العز السامق والقوة والجبروت والسلطة والحكم، ويدرك ان الشعر وحده لا يهيء له ذلك، ويتحول الى داعية حرب حقيقي وناثر

وسجين^(٢١٩)، ويخوض المعارك مع سيف الدولة، ولا يثبت في احدى الغزوات الا ستة، منهم الامير والشاعر^(٢٢٠)، وتثير اشعاره حساسة الجند واقدامهم^(٢٢١)، ويقطع الفيافي والقفار، دون ان يخشى الوحوش وقطاع الطرق، ويحمل معه طموحه الى كل مكان، ويأمل ويرقب وينتظر، ويقترن نزوعه الى الحكم بالسيف ويتخذ مناراً لآماله وجوهراً لنواذعه ويرعاه في شعره، ويملاً صوت الحرب عليه حياته، ولا يفارقه حتى في المواقف التي تنحسر فيها طقوس القتال. ولا يخلو أكثر قصائده من سيف ورمح، وتلك الروح العسكرية الآسرة التي صاحبته في أطوار حياته المختلفة، ولم تفارقه ابداً، فهو يتميز بذلك، دونه الشعراء الفرسان، حتى جاء في المثل السائر: «أنه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصالها واشجع من ابطالها، وقامت أقواله للسامع مقام افعالها، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلوا»^(٢٢٢)، وتمتزج نزعته الحربية بالأوصاف الغزلية: «ومن بدائع ابي الطيب المتنبي استعماله الفاظ الغزل والنسيب في اوصاف الحرب والجد، وهو ايضا مما لم يسبق اليه وتفرد به فأظهر الحدق»^(٢٢٣)، فالنظرات تجرح فؤاده بطعنات واسعة تنفذ من الدرع التي تتكسر دونها الرماح^(٢٢٤):

مثلت عينك في حشاي جراحةً

فتشاهما كلتاهما نجلاء

نفذت علي السابريّ وربما

تندق فيه الصعدةُ السمراء

والناس تعشق وتحب، لكن الشاعر لا يهوى سوى ضرب الاعادي ولا

يشفى قلبه الا بجولة فيهم يكثر بعدها القتلى والجرحى^(٢٢٥):

ضروبُ الناس عشاق ضروبا

فأعذرهم أشفهم حبيبا

وما سكي سوى قتل الاعادي
فهل من زورة تشفي القلوبا
وكل امرأة معه لها ضرائر، هن الفتوة والمروؤة والابوة^(٢٦)، ولا ينسى
الطعن والقتل حتى في موقف وداع^(٢٧) :

نودعهم والبينُ فينا كأنه
قنا ابن ابي الهيجاء في قلب فيلق
وتقترن القبل بالرمح والطعن^(٢٨) :

أعلى المالك ما ينسى على الأسلِ
والطعنُ عند محبيهن كالقبلِ
وحين يدعى الى الخمر في جلس هو لا يستجيب ويتحول الرمح لديه
نديما يشرب الدم ويسقيه العزم^(٢٩) :

إذا ما شربت الخمرَ صرفاً مهناً
شربنا الذي من مثله شرب الكرمِ
ألا جبذا قومٌ نداماهم القنا
يسقونها ريبا وساقيههم العزمُ
فاقحام جيش في جيش ومعاطاة الصفائح والعوالي ألدَّ عنده من طرب
وخر^(٣٠) .

ألدُّ من المدام الخندريسِ واحلى من معاطاة الكؤوسِ
معاطاة الصفائحِ والعوالي واقحامي خيساً في خيسِ
ويجته رفاقه على الشرب فيأبى ويبدلون ولا يقبل وتقوم حالات الغناء
والطرب، وتبدع المغنيات وينسى الانسان همومه فلا يأنس الشاعر الا
بصليل السيوف^(٣١) .

لأجبتى ان يملأوا بالصافيات الاكوبيا

وعليهم ان يبذلوا وعلي أن لا أشربا
حتى تكون الباترات المسمعات فأطربا
ولكنه يدرك حيناً وفي أوقات محدودة ان هناك ما يفوق السيف لطفاً
وروعة (٢٣) :

وكان اطيّب من سيفي مضاجعة
اشباه رونقه الغيد والأماليد

وبما ان الكرم والشجاعة من صفات العصر فلا يستطيع شاعر ان يغفل
عنهما في معرض مديح، ولا سيما اذا كان الممدوح فارساً شجاعاً، وقد جمع
المتنبي في قصائد بين الصفتين جمعاً تتضح فيه براعته الشعرية ونزعته
الحرية، فللأشعار في قلب الممدوح جولة واغارة على عطاياه فكأن كل
بيت يمثل جيشاً يسي ما يشاء من امواله (٢٣) :

في كل يوم للقفوافي جولة
في قلبه ولأذنه اصغاء
واغارة فيما احتواه كأنما
في كل بيت فيلق شهباء

وينفي عن النجوم الخلود، فلو حاربها الممدوح لناحت فيها
الثواكل (٢٤)، وغبار الحروب خيامه (٢٥)، والحفاظة الظبا والعوالي (٢٦)، ويرى
ان بساتين الممدوح هي الجياد، ولا ندري اية صلة غريبة ربطت في ذهنه
بينها (٢٧) :

وبساتينك الجياد وما تحمل
من سميرية سمراء
ويبدع المتنبي صوراً شعرية حرية متكاملة قد تفوق في دقتها وبراعتها
ما يحدث فعلاً في ساحات الوغى، فلديه خيال حربي لا تحده وقائع حقيقية
تعرفها ميادين الحروب والبطولات (٢٨) :

مِرْقَعِي خِيْلَهُمْ بِالْبَيْضِ مِتْخَذِي
هَامَ الْكِمَاةِ عَلَى أَرْمَاحِهِمْ عَذِيبَا
أَنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْ لَاقَتْهُمْ وَقَفْتُ
خَرْقَاءَ تَتَهُمُ الْإِقْدَامَ وَالْمُهْرِبَا
وَيَكْثُرُ مِنَ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ وَلَا يَنْجُو مِنْ ذَلِكَ حَتَّى مَلُوكِ الْعَرَبِ
وَالْعَجَمِ (٢٩) :

مِعَادِ كُلِّ رَقِيقٍ الشَّفِيرَتَيْنِ غَدَا
وَمِنْ عَصَا مِنْ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
وَالْأَبْيَاتِ الَّتِي تَفْصَحُ عَنْ فَخْرِهِ بِنَفْسِهِ وَشَجَاعَتِهِ وَأَقْدَامِهِ فِي الْحُرُوبِ
كَثِيرَةٌ، فَهُوَ أَقْوَى مِنْ مَلِكِ الْمَوْتِ وَأَشَدَّ جَرِيًّا فِي الظَّلَامِ مِنْ خِيَالِ (٤٠) :

مَا تَرِيدُ النَّوَى مِنَ الْحَيَاةِ الذُّو
أَقِ حَرًّا الْفَلَا وَبَرْدَ الظَّلَالِ
فَهُوَ أَمْضَى فِي الرُّوحِ مِنْ مَلِكِ الْمَوْتِ
تِ وَأَسْرَى فِي ظِلْمَةِ مَنْ خِيَالِ
يَضْرِبُ أَعْدَاءَهُ بِمَنْجَنِيْقِ شَعْرِي يَمْحَقُهُمْ بِمَا يَحْمِلُ مِنْ أَبْيَاتِ هِجَاءٍ وَيَهْدِ
أَرْكَانَهُمْ وَيَحْطُمُ أَصُولَهُمْ (٤١) :

وَلَوْ ضَرَبْتَكُمْ مَنْجَنِيْقِي وَأَصْلَكُمْ
قَوِي لَهْدَتَكُمْ فَكَيْفَ وَلَا أَصْلُ
وَهُوَ لَا يَجِدُ لِنَفْسِهِ كِرَامَةً دُونَ مَغَامَرَةٍ وَأَقْدَامِ (٤٢) :

أَنَّ لَمْ أَذْرِكْ عَلَى الْإِرْمَاحِ سَائِلَةً
فَلَا دَعَيْتُ ابْنَ أُمِّ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ
وَلَا عَجَبُ أَنَّ يَجِيدُ الشَّاعِرُ وَصَفَ الْمَعَارِكِ وَالْحُرُوبِ، وَيُضْفِي عَلَيْهَا
شَيْئًا مِنْ ذَاتِهِ، وَيَمْتَزِجُ بِهَا، وَيَتَفَوَّقُ عَلَى الْوَاقِعِ فِي تَأْطِيرِهَا (٤٣) :

يهز الجيشُ حولك جانبيه
كما انتفضت جناحها العقابُ
وقد يعجز المصورون والمراسلون الحربيون عن الاتيان بهذه الدقة واستغراق
الحدث وتقديمه صورة تامة مكثفة مختصرة في بيت أو أبيات (٤٤) :

يزور الأعادي في سماء عجاجة
أستنه في جانبيها الكواكبُ
فسفر عنه والسيوف كأنما
مضاربيها مما انفللن ضرائبُ
طلعن شموسا والغمود مشارقُ
لهن وهاماتُ الرجال مغاربُ

ولا تغادره روحه العسكرية ونزعته الحربية وهو يصف ما يراه من
عجائب الطبيعة، فحين يصل الى بحيرة طبرية، لا تنسيه مناظرها الخلابية
ساحات الوغى، وتستغرقه اجواء الطعن والقتال فيرى الموج تزيد وتهدر
كالفحول، ولكن ليس بها شهوة للحرب، اما الطير، وهي ترفرف على الماء
وتضرب بأجنحتها فيه، فتبدو كجماعة من فرسان تضطرب على ظهور
خيل انقطعت اعنتها، وتظهر له الامواج، والطيور من فوقها، كجيشين
متداخلين في هجوم ودفاع واقدام وهروب (٤٥) :

لولاك لم أترك البحيرة وال
غورٌ دفيءٌ وماؤها شيمٌ
والموجُ مثلُ الفحول مزبدةٌ
تهدر فيها وما بها قطعٌ
والطيرُ فوق الجباب تحسبها
فرسانٌ بلقٍ تخونها للجمُ
كأنها والرياحُ تضربها
جيشا وغي هازمٌ ومنهزمٌ

وهكذا تملأ ابواق الحرب مسالك ذهن المتنبى، في أي مجال كان،
ولكنه يتحول مرة، في شعره، الى داعية للسلام، ويرى ان الحرب ضرورة
لدفع الهوان، ولولاه لانتفت الحاجة اليها، وان روح القتال تولد مع

الانسان الذي يسرع كلما أنبت الدهر قناة فيركب فوقها الرماح ويوجهها الى اخيه الانسان وهذه الحياة بما ترفد وتعطي أصغر من أن نتعادي ونتفاني فيها، والاعمار كالحلم، سرعان ما تنقضي، والدنيا فانية لا تستحق قتلا وخصومة^(٤٦) :

كلمج أنبت الزمان قنائة
رگب المرء في القنائة سنانا
ومرادُ النفوس أصغرُ من أن
نتعادي فيه وأن نتفاننى
غير أن الفتى يلاقى المنايا
كالحات ولا يلاقى الهوانا

وهو حين يسير في شعب بوان، تأخذ مناظره الطبيعية عليه مسارب تفكيره، ويود ان يستقر فيه، ولا يبرحه، يعجب بالندى يصيب الاشجار كالجهان ويبدو كاللؤلؤ المنثور، والاغصان الرائعة تحجب ضوء الشمس الا قليلا من نور يفلت من بين العرائش، والامواه والثمار تملأ المكان، ولكن النزعة الحربية تستيقظ في نفسه بالرغم من ذلك فيريد ان يخرج من ذلك الجو الرائع الى الطعن والقتال فيعترض عليه حصانه^(٤٧) :

يقول بشعبِ بَوَانِ حِصَانِي
أَعْنِ هَذَا يَسَارُ إِلَى الطَّعَانِ
أَبُوكمْ آدَمُ سَنَ المعَاصِي
وعلمكم مفارقة الجنان

ولكنه كمدوحه يمل اليوم الذي لا طعن فيه ولا دماء^(٤٨) :

مللتُ مقامَ يومٍ ليس فيه
طعانٌ صادقٌ ودمٌ صيبُ

- (١) عبد الوهاب عزام، ذكرى ابي الطيب بعد الف عام، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦، ص ٨٣.
- (٢) - (١٥) الديوان، ج ١، ص ٢٧٢. ج ٣، ص ٨٢، ١٨٦، ٣٦١. ج ١، ص ٢٩٧
 ج ٢، ص ٨٠، ١٧٥. ج ٤، ص ٢٠٠. ج ٢، ص ٢٩. ج ٣، ص ١٦٢، ج ٤
 ص ١٥٩، ج ١، ص ١٢٠، ٤١. ج ٣، ص ٨.
- (١٦) الديوان، ج ١، ص ١٠، ٤٦. ج ٢، ص ٢٩٣، ٣٤٧، ٥٠. ج ٣، ص ٢٨٠، ٣٦٠.
 ٣٠، ٢٧٤. ج ٤، ص ١٩٠، ١٦.
- (١٧)، (١٨) الديوان، ج ١، ص ٣٠٨، ٣٢١.
- (١٩) مع المتنبي ٨٩. الدولة الحمدانية ٢٧٦.
- (٢٠) الصبح المنبي ٧٨.
- (٢١) الديوان ٤ - ١٥٦. وينظر: مع المتنبي ٢٢٥.
- (٢٣) الصبح المنبي ٤٣١.
- (٢٤) - (٤٨) الديوان، ج ١، ص ١٤، ١٣٧، ٢٢٧. ج ٢، ص ٣٠٨. ج ٣، ص ٣٤.
 ج ٤، ص ٤٦ ج ٢ ص ١٩١. ج ١، ص ١٠٦. ج ٢، ص ٤٠. ج ١، ص ٢١،
 ج ٣، ص ١١٩. ج ١، ص ٥٤. ج ٣، ص ١٩٨. ج ١، ص ٣٣، ١١٩. ج ٤،
 ص ٢٤. ج ٢، ص ١٩٣. ج ٣، ص ٢٦٢. ج ٤، ص ٤٣. ج ١، ص ٧٦، ١٠٧
 ج ٤، ص ٦٦، ٢٤٠، ٢٥٥. ج ١، ص ٧٣.

المتنبي وكافور

لم يحدث أن شاعراً يقصد ممدوحاً، يتقرب إليه ويشيد بمكارمه، ليحصل منه على ولاية ويشاركه في الحكم، ولا تتحقق آماله، فيهجوه ويصمه بالعار، ولا يعرف الناس والتاريخ ذلك الممدوح الا من خلال قصائد الهجاء، لانه لم ينخدع ولم يهيب للشاعر ما اراد، وما كان كافور ساذجاً، وقد ارتقى الى الحكم من أدنى درجات العبودية بدافع من طموح يدرك أبعاده ومراميه عند المتنبي وغيره، «وكانت سيرته من اغرب السير»^(١)، قدم مصر قنا مجلوباً مع عبيد، من النوبة او السودان او الحبشة^(٢)، ليباع في أسواقها وعمره ما بين العاشرة والرابعة عشرة، فاشتراه تاجر زيت: «حل نير المعصرة على كاهليه، وحل الاواني على عاتقيه، وجر العجلات بيديه، وافترش الارض، وتمرغ في الزيت، ونقي الكثير من العنت الذي يصحب حرفة كهذه وتعرض لويل كثير...»^(٣)، واشتراه فيما بعد محمود بن وهب بن عباس الكاتب، وحل يوماً هدية من مولاه الى ابن طغج، صاحب مصر، فأعجب بقوته وخلقه وضمه الى حرسه الخاص، «وكان كافور خبيراً بالسياسة فطنا، ذكياً، جيد العقل، داهية»^(٤)، فأصبح يجزمه وتدبيره قائد عسكري، حارب ابن رائق وسيف الدولة في الشام. وعندما توفي سيده أخذ البيعة لابنه أنوجور، وظن سيف الدولة ان موت ابن طغج يمكنه من دمشق فاستولى عليها وتقدم الى الرملة ولكن

كافوراً سار اليه فهزمه وأخرجه من دمشق ومن حلب، ثم اصطالحا^(٥)، وكان يدبر في الخفاء، منذ ان ادرك واقعه والظلم الاجتماعي الذي حاق به ان يتفوق على أسياده ويحكمهم: « فاستمال العبيد وأفسدهم على ساداتهم »^(٦) على نحو تاريخي مثير، « وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده »^(٧) وانفرد بالسلطة: « وخطب له على منابر مصر والشام والحجاز وبعض الثغور الرومية حتى توفي سنة ٣٥٦ هـ وعمره خمس وستون سنة بعد ان حكم مصر وما يتبعها اثنتين وعشرين سنة... وكان قوياً، شجاعاً، حازماً، استطاع ان يرضي العباسيين والفاطميين معا »^(٨)، واكثر حكام مصر، قبله، كانوا من الطغاة والمستبدين ولكنه: « غير هؤلاء جميعاً رفقا بالناس... يوزع عطاياه بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج... ولم يتعال ويتكبر، ولم يعاقب من يتحدثون عنه بسوء »^(٩)، « ومما يدعو الى شيء من العجب ان سيبويه المصري كان يعلن سخطه على كافور غير هياب... ولكنه لم يتخذ اي اجراء ايجابي لعقابه أو القضاء عليه او الانتقام منه »^(١٠)، لانه متواضع كريم، حتى مع أعدائه. لديه أموال خاصة بالفقراء والمستورين والمحتاجين تبلغ نصف مليون دينار سنوياً، وموظفون يوزعونها عليهم باشرافه، وحين يقومون بواجباتهم يقول: الحمد لله الذي جعلني سبياً لا يصلح الراحة الى عياله، وحداً من سلطة القضاء في عهده وجلس ينظر في المظالم، ولم يصادر أموال الآخرين، كما فعل كثير من الحكام، وكان متديناً، يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً، ويقول، اللهم لا تسلط علي مخلوقاً^(١١).

ويقترن تاريخ كافور بالشعر، حين ينجح الحساد في ابعاد المنتبي عن حلب، فيحمل آماله العريضة معه، بعد خذلان وخيبة، الى دمشق، فيطلبه كافور ليوطد به اركان حكمه، ولا سيما بين الاعراب، وليصبح كملوك عصره موضع تأليه واشادة وتكريم من الشعراء ويرفض المنتبي ويرحل الى الرملة، ويطلبه كافور ثانية، وربما يلوح له بولاية، فيشد الرحال الى

مصر، ويدرك ما يفعل، وأنه في سبيل لقاء العبد: « وقد سأل عنه بعض بني هلال، فقال: رأيت أمة سوداء تأمر وتنهاي »^(١٢)، ويبعد الشاعر عنه هذه الصورة، فهو في سبيل غاية معينة، تهون لديها الوسائل، وحكم وسلطة، فقد تتحقق الآمال ويستولي على ارجاء كثيرة من المعمورة، ويغيب حساده وصاحبهم في حلب، ولا ينساهم في قصائده الجديدة التي يمدح بها كافوراً. ولكنه يفخر بنفسه كثيراً ويعرض أحياناً بكافور، ولم يحدث أيضاً ان شاعرا يود ان يحكم عن طريق المدح، لينال من ممدوحه منصباً، يميل الى السخرية منه في قصائده، « وكان كافور يعلم يقينا ان ابا الطيب لا يضمر له حباً ولا كرامة، بل كان يزدريه في نفسه... وحسه ما كان يذكر في مدحه له من الحنين الى سيف الدولة وندمه على فراقه »^(١٣).

يحمل أبو الطيب، اذن، آماله العظيمة معه، وي طرحها بين يدي كافور وينشده واقفاً، بعد ان أبى ذلك على سيف الدولة: « وفي رجليه خفان، وفي وسطه سيف ومنطقة »^(١٤):

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم
الى غيوث يديهِ والشآبيبِ
الى الذي تهبُ الدولاتِ راحتُه
ولا يمنُّ على آثار موهوبِ

ويعد كافور بولاية، تصریحاً وتلميحاً، ولا يوفي بوعدده، ويدرك بتجاربه الكثيرة ودهائه ووسائل مكنته من الوصول الى الحكم، مدى طموح الشاعر، فيكتفي بالاعطية والمال، دون السلطة والسلاح، وتتوالى أبيات المتنبى^(١٥):

وغيرُ كثيرٍ ان يزورك راجلٌ
فيرجع ملكاً للعراقين والبا

ويلح ويتعجل، وتمضي اسابيع وشهور، وابو الطيب ينظم وينشد،

وكافور يعد ويرجع عن وعده^(١٦) :

أبا المسك هل في الكأسِ فضلٌ أناله
فإني أغني منذ حين وتشربُ
إذا لم تنط بي ضيعةً أو ولايةً
فجودك يكسوني وشغلك يسلبُ

ويظل الممدوح يشرب، ويبقي ابو الطيب يقده آماله بالشعر^(١٧) :

وأمضى سلاحِ قلد المرء نفسه
رجاء أي المسك الكريم وقصده
ويفضي اليه بتعال وكبرياء أنه جاء مصر ليختبر صواب رأيه فيه، ولا
ندري من كان يجده صاحبه^(١٨) :

وما شئتُ الا أن أذل عواذلي
على أن رأسي في هوك صوابُ

ويوغل الشاعر في مديحه ونحس في أبيات له اعجاباً كامناً وروحاً
صادقة وتقديراً عالياً، وربما عدَّ الممدوح زميلاً له في المجد، استطاع ان
يرقى الى السلطة والحكم، بالرغم من كونه عبداً مملوكاً، فكيف بشاعر
العصر، يعجز عن ذلك؟ فليستعن به، اذن، وليصبر وينتظر، وليطر
محاسنه وصفاته، وليمجد جهاده وكفاحه. ويشير المتنبي الى حياة كافور
قبل ان يحكم، وما قاسى من تجارب مريرة كثيرة ايام العبودية والذل
واهوان والتهمؤ والتربص بالأسياذ للانقضاض عليهم، وجهاده في سبيل
السلطة^(١٩) :

وما كنت ممن ادرك الملك بالمنى
ولكن بأيام أشن النواصييا
ويشيد بتدبيره الحكم في بلاد واسعة تنطوي تحت نفوذه، فلا تشرق

عليها شمس الا ولها منه أذن بالغروب، ويصف كرمه اللامتناهي، يلي ما يطلب منه برضى تام وشوق شديد (٢٠):

يدبر الملك من مصر الى عدن
الى العراق فأرض الروم فالنوب
إذا أتتها الرياح النكب من بلد
فما تهب بها الا بترتيب
ولا تجاوزها شمس إذا شرقت
الا ومنه لها اذن بتغريب
كأن كل سؤال في سامعه
قيص يوسف في أجفان يعقوب
إذا غزته أعاديته بمسألة
فقد غزته بجيش غير مغلوب

ويستمر الشاعر (٢١):

يا رجاء العيون في كل أرض
لم يكن غير ان اراك رجائي
وتكثر الاماديح ولا تتحقق الآمال، ويدرك المتني اي وهدة وقع فيها
ويحاول ان يخلص من ورطته، ويعرف كافور خطورة ما يحيق به اذا هرب
ابو الطيب واذاع فيه اهاجيه، فيفرض عليه ما يشبه الاقامة الاجبارية،
ويستمر الشاعر في النظم ويبدأ بالتعريض والسخرية من كافور بأبيات
تحتمل في تأويلها الشيء ونقيضه، بعد أن احس بعثت وعوده، فهل
نصدق ان الشاعر كان جادا في هذين البيتين؟ وأي معنى هذا الذي يؤدي
بان للممدوح ما يسرح بين الارض والسماء، وانه اعلى من ان يهنا بمكان
في هذا العالم (٢٢):

أنت أعلى محلّة أن تهنا بمكان في الارض او في السماء

ولك الناسُ والبلاؤُ وما يسرُّ حُ بين الغبراءِ والخضراءِ
ألا نجد هنا إشارة الى ماضيه في العبودية (٢٣) :

ترعرع الملكُ الاستاذُ مكتهالاً
قبل اكنهالٍ اديباً قبل تأديبِ
ألا يحوله ببساطة الى مربية ومرضع في هذا البيت (٢٤) :

وأنت الذي ربيتَ ذا الملكَ مرضعاً
وليس له أمٌ هناك ولا أبُ

والشاعر خير من وصف الحروب والمعارك وضروب الاقدام والجرأة،
فأي نوع من الشجاعة يتضمنه قوله (٢٥) :

إذا ضربتُ بالسيفِ في الحربِ كُفُّهُ
تبينتُ ان السيفَ بالكفِ يضربُ

وفي بيت اخر يقول ان كافوراً يتقدم في الغزوات ويترك وراءه الرماة
والمقاتلين (٢٦) :

وأوسعُ ما تلقاهُ صدرأً وخلفه
رماءٌ وطعنٌ والأمامُ ضرابُ

وهذه شتيمة واضحة يتحول فيها أحسن ما يثنى عليه عارا (٢٧) :

تجاوز قدرَ المدحِ حتى كأنه
بأحسن ما يثنى عليه يُعابُ

وكيف يرضى ان يكون معد بن عدنان والعرب جميعا فداء لكافور،
والمتنبي يعتز بعروبته كثيرا (٢٨) :

وأئى قبيلٍ يستحقك قدره
معدُّ بنُ عدنانٍ فداك ويعربُ

وما طربي لما رأيتك بدعةً
لقد كنتُ أرجو أن اراك فأطربُ

واشار الشراح الى ما يتضمنه البيت الثاني من هجاء وسخرية، وقال ابو
الفتح بن جني: لما قرأت البيت على ابي الطيب قلت: لم تزد على ان جعلته
ابا زنة (لقب القرد) فضحك ابو الطيب^(٢٩)، ويستمر الشاعر^(٣٠):

ومن قولِ سامٍ لو رآك بنسله
فدى ابن اخي نسلي ونفسي وماليا

وبراعة لغوية شعرية يجري مقايسة بينه وبين الذباب^(٣١):

جرى الخلفُ الا فيك انك واحدٌ
وأنتك ليثٌ والملكُ ذئابُ
وانك ان قويست صحفَ قارىء
ذئاباً ولم يخطيء فقال ذبابُ
وان مديحَ الناسِ حقٌّ وباطلٌ
ومدحُك حق ليس فيه كذابُ

والشاعر يضحك منه ويسخر ويختلط الجد بالهزل وتنحسر الغاية وتضيع
الولاية فيقول^(٣٢):

ولو كنتُ أدري كم حياقي قسمتها
وصيرتُ ثلثيها انتظارك فاعلم

ويشير في مدحه الى ضرب من هذيان الاعداء المذمومين، وكأنه يريد
ان يؤكد أقوالاً واحداً معينة، ولا يرى طه حسين في ذلك تعريضاً
بكافور: « فالبيت مديح خالص لا غبار عليه ولا لبس فيه »^(٣٣):

عدوك مذمومٌ بكل لسانٍ
ولو كان من اعدائك القمرانِ

والله سرٌّ في علاك وانما
كلامُ العدا ضربٌ من الهذيانِ
ألتتمسُ الاعداءُ بعهد الذي رأت
قيامَ دليلٍ او وضوحَ بيانِ
وأى دليل واي بيان؟ أيريد الشاعر ان يشير الى المعجزة او المهزلة
الكبرى ان يكون كافور حاكماً (٣٤):

قضى الله يا كافورُ أنك أولُ
وليس بقاضٍ ان يُرى لك ثاني
فهو حين يتطلع الى ضيعة او ولاية يجد في ترعب كافور على دست
الحكم اعجوبة للزمان، ويعيد هذا المعنى في أماديجه (٣٥):
وما زال أهلُ الارضِ يشتهون لي
اليك فلما حتّ لي لاح فرده
ويزيد (٣٦):

أبا كلّ طيبٍ لا أبا المسكِ وحدهُ
وكل سحاب لا أخصُّ الغواديا
يدلُ بمعنى واحدٍ كلُّ فاخِرٍ
وقد جمع الرحمنُ فيك المعانيا
ويصف الشاعر اتباع كافور والقائمين على خدمته والداخلين في طاعته
بانهم مغلوبون على امرهم، ذلوا تحت سلطانه، وكأنه كارثة طبيعية ماحقة
لا يدرأها أحد (٣٧):

أجفل الناسُ عن طريق ابي المسدِّك وذلت له رقاب العبادِ
كيف لا يترك الطريق لسيلٍ ضيق عن آتية كل وادٍ
ولم يكن من دخل في طاعته سيداً، وليس له اخلاق السادة وشجاعة

الفرسان وطبائع الآساد، وكان الشاعر يهجو نفسه^(٣٨) :
فبهذا ومثله سدت يا كافور رُ واقتدت كلَّ صعبِ القيادة
وأطاع الذي أطاعك والطاعة ليست خلائقَ الآسادِ
وعرض بكافور في القصيدة التي مدح بها منافسه القديم في الحكم أبا
شجاع فاتكا^(٣٩) :

وأجز الامير الذي نعماه فاجئنة
بغير قولٍ ونعمى الناس اقوال
وأمثلة السخرية كثيرة في قصائد المديح التي وجهها الى كافور، ولا
يغفل عن ذكر سيف الدولة ليغيظه، ولا يكتفي الشاعر بهذا وذاك فيأتي
على ذكر لونه الاسود^(٤٠) :

يفضحُ الشمسَ كلما ذرتِ الشمسُ سِ بشمسٍ منيرةٍ سوداءِ
ان في ثوبك الذي المجدُ فيه لضياءٌ يزري بكل ضياءِ
انما الجلدُ ملبسٌ وايضاضُ الـ نفسِ خيرٌ من ابيضاضِ القباءِ
ويطيل المتنبى التفكير والتأمل في لون كافور ويخرج بانه، في سواده،
انسان عين الزمان^(٤١) :

قواصدُ كافورٍ تواركُ غيره
ومن قصد البحرَ استقلَّ السواقيا
فجاءت بنا انسانَ عينِ زمانِه
وخلت بياضاً خلفها وماقيا

وفي قصيدة مديح لكافور أخيرة يذكر لونه الاسود مرات عدة^(٤٢) ،
« وكان المتنبى يعلم ان ذكر السواد على مسامع كافور أمرٌ من الموت، فاذا
ذكر لونه بعد ذلك فقد أساء الى نفسه وعرضها للقتل والحرام، وكان
من احسان الصنعة واجمال الطلب الا يذكر لونه، وله عنه مندوحة، ولكن
الرجل كان سيء الرأي، وسوء رأيه أخرجه من حضرة سيف الدولة،

وشدة تعرضه لعداوة الناس، وقد ذكر سواد كافور في عدة مواضع،
وكان اللائق الا يذكره...»^(٤٣)، وترد مطلع له وأبيات لا تتلاءم
وطموح الشاعر الى تحقيق آماله بالمديح^(٤٤) :

كفى بك داءً ان ترى الموتَ شافيا
وحسبُ المنايا ان يكنَّ أمانيا
تمنيَّها لما تمنيتَ ان ترى
صديقاً فأعيأ أو عدواً مداجيا
وللنفسِ اخلاقٌ تـدُلُّ على الفتى
أكانَ سخاءً ما أتى أم تساخيا
وترد أبيات اخرى في مدائحه لكافور^(٤٥) :

أما تغلظُ الايامُ فيَّ بأن أرى
بغيضاً تنائي او حيباً تقربُ
ألا ليت شعري هل أقولُ قصيدةً
فلا أشككي فيها ولا أتعتبُ

وتفشل مساعي ابي الطيب واشعاره وشكاواه، ويدرك كافور سراميه
منذ البداية ويستخدمه مداحاً، ولا يحقق له رجاء : « أنت في حال الفقر
وسوء الحال وعدم المعين سمت نفسك الى النبوة، فان أصبت ولاية وصار
لك اتباع فمن يطيقك؟ »^(٤٦) ويحكم كافور على آمال الشاعر بالخيبة، ولا
يستطيع ابو الطيب ان يغادر مصر علانية^(٤٧) :

أقمتُ بأرضِ مصرَ فلا ورائي
تخبُّ بي المطيِّ ولا أمامي
قليلٌ عائدي سقمٌ فؤادي
كثيرٌ حاسدي صعبٌ مرامي

وينتظر الساعة المناسبة للخلاص، وحين يهرب ويلحق به جند كافور،

وتسري حالة من انذار بين القبائل للامساك به وارجاعه الى مصر،
وينجو، يبدأ طور جديد من العلاقة الغربية بينه وبين كافور وتمثل في
الهجاء بعد المديح الذي يعتذر عنه الشاعر بأنه كان هجو الوري (٤٨) :

وشعر مدحتُ به الكركدن بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجو الوري
ويلغي في ابيات، يحفظها الناس، تاريخ كافور وأعماله (٤٩) :

لا تشتري العبد الا والعصا معه
ان العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسني أحيا الى زمن
سيء بي فيه كلب وهو محمود
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا
وان مثل ابي البيضاء موجود

ويدعو المتنبي الى التفرقة العنصرية، خلاف ما آمن به في مطلع شبابه
من مساواة بين الناس واشاعة للعدالة الاجتماعية، اراد ان يكون السيف
واسطة لتحقيقها، وبالرغم مما لاقاه في حلب من عنت واعراض وذل فهو
لم يهج سيف الدولة وظل وفياً له، وكان موضع احتفاء في مصر وعناية
وخشية، ولكن هجا صاحبها، بعد مديح، وحوله ضحية من اكبر ضحايا
الشعر عبر القرون، ولم يكتف بشتمه ولكن حرض على قتله ايضا (٥٠) :

ألا فتى يورد الهندي هامته
كما تزول شكوك الناس والتهم

ولا يحفظ الناس بيتاً واحداً من مديح المتنبي لكافور، ويبقى الهجاء
حياً في اذهانهم، وتنتهي العلاقة الغربية بين الشاعر والممدوح، وهذا الفيض
من الاحداث المتلاحقة، واستجداء الشعر للسلطة، واقتران تطلعات الشاعر
الى الحكم بالخفية، ويثبت الشعر على مدى الايام انه اقوى من الحقيقة وله

سطوة في عوالمنا تفوق كل نفوذ وتدبير وسلاح، ويتآمر التاريخ والشعر على كافور ويسدلان الستار على وقائع حياته، ما له وما عليه، ولا يستجيب الله لدعائه حين كان يتهدد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول اللهم لا تسلط علي مخلوقاً.

-
- (١) د. سيدة اسماعيل كاشف، مصر في عصر الاخشيديين، ط ٢، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٣٧.
- (٢) ابراهيم الابياري، أبو المسك كافور، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٣٠. وينظر محمد كمال حلمي، ابو الطيب المتني، القاهرة ١٩٢١، ص ٥٨.
- (٣) ابو المسك ١٣٢. وينظر: مصر في عصر الاخشيديين ١٣٧.
- (٤) مصر في عصر الاخشيديين. ١٤٣.
- (٥) ينظر: د. فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ج ٢، بغداد ١٩٧٣، ص ٣٦ وما بعدها. وعبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦، ص ١٠٨ وما بعدها. والبرقوقي ص أ-أ.
- (٦) ديوان أبي الطيب، تحقيق عبد الوهاب عزام، القاهرة ١٩٤٤، ص ٤٣٦.
- (٧) الصبح المنبي ١١١.
- (٨) ذكرى ابي الطيب ١٩٠، ١١٠. وينظر: مصر في عصر الاخشيديين ١٠٧.
- (٩) ابو المسك ١٤٩. ومصر في عصر الاخشيديين ١٤٤.
- (١٠) مصر في عصر الاخشيديين ٣٣٦.
- (١١) المصدر السابق ١٤٤ - ١٤٧، ٢١٠، ٢٣٩.
- (١٢) الصبح المنبي: ١١٠.
- (١٣) شاكر ١٤٧.
- (١٤) الصبح المنبي ١١٢. والديوان ١ - ١٧٣.
- (١٥) - (٢١) الديوان، ج ٤، ص ٢٩٠. ج ١، ص ١٨٢. ج ٢، ص ٢٣. ج ١، ص ١٩٩. ج ٤، ص ٢٩١. ج ١، ص ١٧١، ٣٦.
- (٢٢) الديوان ١ - ٢٣. وينظر: عبد القادر المازني، حصاد الهشيم، ط ٧، القاهرة ١٩٦١، ص ١٣٥.
- (٢٣) - (٢٨) الديوان، ج ١، ص ١٧٠، ١٨٥، ١٨٢، ١٩٥، ١٩٤، ١٨٦.

- (٢٩) الصبح المنبي ١١٧. وينظر: هامش (٢٧) من المتنبي وحاسديه.
- (٣٠) - (٣٢) الديوان، ج ٤، ص ٢٩٣. ج ١، ص ١٩٩، ج ٤، ص ١٤٢.
- (٣٣) طه حسين، مع المتنبي، القاهرة ١٩٦٠، ص ٣١٥. والديوان ٤ - ٢٤٢.
- (٣٤) - (٤٢) الديوان، ج ٤، ص ٢٤٦، ج ٢، ص ٢٧. ج ٤، ص ٢٨٩. ج ٢، ص ٣٨، ج ٣، ص ٢٧٧. ج ١، ص ٣٤. ج ٤، ص ٢٨٧. ج ١، ص ١٨٨.
- (٤٣) عن الوحيد، ينظر: الصبح المنبي ١١٦.
- (٤٤)، (٤٥) الديوان، ج ٤، ص ٢٨١. ج ١، ص ١٧٧.
- (٤٦) الصبح المنبي ١١٢.
- (٤٧) الديوان ٤ - ١٤٥.
- (٤٨) الديوان ١ - ٤٣. وينظر: المازني ١٣٧.
- (٤٩)، (٥٠) الديوان، ج ٢، ص ٤٣. ج ٤، ص ١٥١.

الشاعر والمرأة

يكثر شعراء من النظم في الغزل، وان لم يكونوا متممين، يسعدهم ان يحظوا من المرأة بمكانة في أشعارهم، وان لم تكن لهم في الحب جولات، ويحاولون ان يصطنعوا الاجواء العاطفية الحاملة ويظهروا كالمحبين شوقاً ولوعة، وان شغلوا بحب أنفسهم، وان يبتدعوا حبياً متوهماً، ان افتقدوه في واقع حياتهم. ولكن المتنبي ينفرد، في هذا ايضاً بموقف خاص، وكأنه يهرب من الحب ولا يريد ان يكشف عن نفسه في اشعاره، ويفضي الينا بأنه بعيد عن المرأة وعواملها وانه يرى في حبها والتقرب منها ضعفاً لا يليق بالرجال، ويقتنع بعض شراحه ونقاده وقرائه بذلك، ويجارون في التمييز بين الغزل الحقيقي والمزيف حين تختلط المحاكاة بالمشاعر الصادقة في المطالع الغزلية التقليدية، ويرون انه كان يتغزل بالمجد ويعشق الرفعة، ولم يترك طموحه مكاناً للمرأة في شعره وحياته وانه مغامر فارس لا يمكن ان يخضع لأنثى، و«ان خشونته صرفته عن الاقبال الحقيقي على المرأة»^(١)، ولكن هذه الصورة القائمة لعلاقة الشاعر بها، تزول بتعمقنا في شعره الغزلي، بالرغم مما وضعه امامنا من صعوبات للوصول الى الحقيقة، فهو لم يذكر المرأة التي تزوجها في شعره، ولم يورد اسم حبيبة او عشيقة، وان كان من اسماء الغزل الشائعة، الا نادراً، ومرة أصر النحويون أنه أورد اسم امرأة في بيت له^(٢) :

يا وجة داهيةً التي لولاك ما
أكل الضنى جسدي ورضَّ الاعظما
لأن داهية هنا غير منصرفة، واختلف النحويون في ذلك ايضا وتناسوا
ان للشاعر صرف ما لا ينصرف ومنع الصرف احيانا لما ينصرف.

فهل كان المتنبى يجب أو يستطيع ان يجب؟ ان تميزه الشديد وتعالیه
وطموحه وتفكيره الطويل فيما يود ان يصل اليه من رفعة، قد لا يمنحه
هذا الشعور الرائع. ولكن انفراد الانسان بشخصية متميزة لا يعني عدم
القدرة على الحب دائماً، والتفكير في المعالي قد يضني الشاعر، ولا بد من
ساعات يعود فيها الى انسانيته فتريق دمه كل ذات حار يلتقيها^(٣)، او ان
تكون امرأة ما بؤرة طموحه فيحدثها في اشعاره عن مجاده. ولا شك في
أن شاعرنا قد مرَّ بأوقات اجتاحه فيها شعور غامر بالحب والحنين الى
المرأة، وهو لا يدعي ما ليس له كآخرين يرتدون مسوح العاشقين تمويهاً:
«وقد يتزياً بالهوى غير أهله»^(٤)، ونجد ان احساسه العميق بالحب يقوى
في شبابه: «وما انا الا عاشق...»^(٥)، ويخفت في كهولته، بما تفرضه
طبيعة الحياة، وانه لم يستطع لعشقه كتماناً بالرغم من عملية تضليل سادت
بعض اشعاره، وبالرغم من حذره الشديد، واقناعنا بأن اللطف مع النساء
والفخر بمكانته عندهن عار^(٦):

ليالي عند البيض فوداي فتنة
وفخرٌ وذاك الفخرُ عندي عابُ

ويحس بنجل وحياء من الخلوة بالنساء، ويحتج على نفسه، ان وقع في هذا
المأزق، «فحبه حب عربي أولي لا يشدّ عن التقاليد ولا يتعداها»^(٧):

اذا كنت تحشى العارَ في كلِّ خلوةٍ
فلم تنصباك الحسانُ الخرائدُ
ويحاول ان يقنعنا بأن الحب وهم يتشبث به الانسان طريقاً الى الجنس

والتمكن من الوصل، وان له مناعة شديدة ضد العشق، وان قلبه لا يمكن ان يصير رمية للغواني، وان شهواته ومطامحه تنحصر في الحروب والغزوات، تبريراً وتفسيراً لعزوفه عن النساء الذي يود ان يؤكد في شعره، وأن خير جليس في الزمان ليس امرأة على أية حال^(٨) :

وما العشقُ الا غرّةً وطماعةً
يعرض قلبُ نفسه فتصابُ
وغيرُ فؤادي للغواني رميةً
وغير بناني للرماح ركابُ
تركنا لأطرافِ الفنا كلَّ شهوة
فليس لنا الا بهنَ لعابُ
اعزُ مكانٍ في الدنا سرجُ سابعٍ
وخيرُ جليس في الحياة كتابُ

ولكن الشاعر العاشق الوامق لا يستطيع ان يجيب عنا الحقيقة بهذه الابيات، ففي حقب من حياته، وان كانت قصيرة ومتباعدة، اضناه الحب، وترك اثراً ولم يكشف ذلك في شعره وحاول ان يتجاوزه، ترفعاً وخجلاً وابتعاداً عن العواطف الخاصة، وترسيخاً لمواقف الجد والبطولة والنضال، وايماناً بأن الحب يكشف بوضوح، عقدة الكمال التي اجتاحت الشاعر، باظهار نقص فيه محتم، تطمئنه وتتممه المرأة، فهو بدونها لا يستقل بذاته عن هذه الدنيا، ولا يصطنع عالماً خاصاً له حدود وأسوار، فيرفض وجودها احياناً ليوهم نفسه بالكمال التام. الا ان حبه وتطلعه الى النساء ورد، بالرغم منه، وازحاً في ثنايا بعض قصائده: «ومن يعشق يلد له الغرام»^(٩)، ولا يمكن ان تفسر ابياته الغزلية كلها بمحاكاة الاصول الشعرية السائدة في المديح وافتتاح القصائد، فشيء من الصدق فيها يمنعنا من ذلك، والصورة التي تفصح عنها هذه الابيات لا يمكن الا ان تقنعنا بواقعيتها^(١٠) :

قبلتها ودموعي مزجُ أدمعها
 وقبلتين على خـوفٍ فما لـفـم
 فذقتُ ماءَ حياةٍ من مقلها
 لو صاب ترباً لأحيا سالف الأـمـم
 ترنـو الي بعينِ الظبي مجـشـةً
 وتمسحُ الطللُ فوق الوردِ بالعـنـم
 رويدَ حكيمك فينا غير منصفـةً
 بالناسِ كلهم أفديك من حكم
 أبديتِ مثل الذي ابديتُ من جزع
 ولم تجني الذي أجننت من ألم

وهذا الغزل الرقيق، لا بد من ان يكون صادقا^(١١) :

إلامَ طماعيةً العـاذلِ
 ولا رأي في الحب للعـاقلِ
 يُرادُ من القلب نسيانكم
 ويأبى الطباعُ في الناقلِ
 واني لأعشقُ من عشقكم
 نحولي وكلّ امرئٍ نـاحـلِ
 ولو زلتم ثم لم أبككم
 بكيـتُ على حيي الزائلِ
 وهبت السـلـو لمن لامني
 وبت من الشوق في شاغلِ
 كأن الجفونَ على مقلتي
 ثيابٌ شققن على ثاكلِ

ونيران فؤاد المحب تحرق كل تمويه وتضليل، فالفراق ممض، ومن

أغذت في السير اليوم، كان يقعدها عن النهوض كفل، هو من مقاييس
الجمال العصرية السائدة، لها صفات انثى مثالية، والعذال لا همّ لهم،
يحاولون ان يرشدوا فئات أضلها الله بالحب والهيام، والشاعر يسهر شوقاً
لمن يبيت الليل هائثاً، وتنجده الدموع وشئونها. ويصعب الفصل بين الحب
والجنس في الشعر والواقع، وعند الشاعر وغيره، ولا نستطيع الا ان نقرن
هذه الاشعار الغزلية بالحقيقة فالشاعر يعني بترسيخ الصورة المعاكسة، ولا
يكذب في اثبات ما يريد نفيه، وهو المشهود له بأنه لم يكذب قط (١٢) :

ففي فؤادِ المحبِ نارٌ جوّى
أحرُّ نارِ الجحيمِ أبردها
بانوا بجرعوبةٍ لها كفلٌ
يكاد عند القيام يقعهدها
رجلثةً أمرّ مقلهها
سجلثةً أبيضٌ مجردها
يا عاذلَ العاشقين دغ فئثةً
أضلها الله كيف ترشدها
بش الليالي سهرتُ من طربي
شوقاً الى من يبيتُ يرقدها
أحييتها والدموعُ تنجديني
شئونها والظلامُ ينجدها

وان كان الشعر بريثاً من العشق، فما الذي جرى له بدار أثلة، أيام
تجربير ذيوله؟ وكيف لا يهجم امر النساء، وهو بهن شهيد مقتول، ترديه
سهام العيون، وتحلوه له القبل، ويضنيه فرع ضرب فيه العنبر بماء الورد،
وتأسره طرة شعر، ويفدي سقاة دماء العناقيد بنفسه وما يملك من طارف
وتلديد، وشهود الهوى عنده الشيب والذل والنحول؟ أيمكن ان نصف
صاحب هذه الابيات بأن بينه وبين النساء جفوة، وانه كان مقلداً صرفاً

في ابياته الغزلية (١٣) :

كم قتلٍ كما قتلتُ شهيدٍ
وعيونَ المها ولا كعيونِ
درّ درُّ الصبا أيام تجريدِ
عمرِكَ الله هل رأيتَ بدوراً
راميات بأسهمٍ ريشها الهد
يترشفن من فمي رشفاتِ
ذات فرع كأنما ضرب العنـ
أهلَ ما بي من الضنى بطلّ صد
كلّ شيء من الدماء حرام
فاسقنيها فدّى لعينيك نفسي
شيبُ رأسي وذلتي ونحولي
أيّ يومٍ سررتني بوصالِ

بيضاض الطلى وورد الخدودِ
فتكت بالمتيم المعمودِ
ر ذيولي بدارِ أثلة عودي
طلعتُ في براقعٍ وعقودِ
بُ تشق القلوبَ قبل الجلودِ
هن فيه احلى من التوحيدِ
برُ فيه بماء وريدٍ وعودِ
يد بتصفيفِ طرةٍ وبجيدِ
شربه ما خلا دم العنقودِ
من غزالٍ وطارفي وتليدي
ودموعي على هواك شهودي
لم ترعني ثلاثةً بصدودِ

وواضح ان الشاعر صاحب مغامرات وحكايات في عالم الحب (١٤) :

حاولنَ تفديتي وخفن مراقبا
فوضعنَ ايديهن فوق ترائبنا

وتتضرج وجنات المحب بنظراته (١٥) :

ما بأله لاحظته فتضرجت
وجناته وفؤادي المجروحُ

وله تجارب وجولات، وان ترفعه وعفته لا يمنعان تدلهاً ووقوعاً في
الغرام (١٦) :

يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادر
ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

ويعود يوهنا بان المرأة لا تأخذ منه غير ساعة يجوب بعدها الفلاة الى غير لقاء، فيفصح عن خجل ينتابه ويقلقه فيبعد عنا صورة المحب العاشق^(١٧) :

وللخود مني ساعةٌ ثم بيننا
فلاة الى غير اللقاء تُجَابُ

وان كان ذلك حقاً فاین نضع زيارته للاعراب في الليل والعودة مع الفجر، ووصفه للبدويات الحسان اللائي لم تزيهفن المدن ولم تشوه انسانيتهن طقوس الحضارة؟ يعشق المرأة الحقيقية ويموت فيها هيماً ولا يطبق الزائفة التي موته حياتها بتمثيل وتصنع وكذب ورياء^(١٨) :

كم زورة في الاعراب خافية
ادهى وقد رقدوا من زورة الذيب

أزورهم وسواد الليل يشفع بي
وأنتني وبياض الصبح يغري بي

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمام مائلة
اوراكهن صقيلات العراقيب

ومن هوى كل من ليست مموهة
تركت لون مشبي غير مخضوب

وكيف تم له، بلا تجارب ثرة عديدة وخبرة وتمرس، ان يقارن بين البدوية والحضرية، وان يفضل هذه وينبذ تلك^(١٩) :

هام الفؤاد باعرايبية سكنت
بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا

مظلومةِ القَدِ في تشبيهه غصناً
مظلومةِ الريقِ في تشبيهه ضرباً
بيضاً تطمع فيما تحت حلتها
وعزَّ ذلك مظلوباً اذا طلبا
مرت بنا بين تربيها فقلت لها
من أين جانس هذا الشادنُ العربي

فهو لا يترك هذا الشادن يمر دون ان يسمعه غزلاً ويتوقع رداً،
وكأبناء هذا العصر يداعب الحسان دون وجل، فهذه التي سفكت دمه
وتقلدته، وجمعت بين حسن الشمس والقمر، سألت عن اصفرار لونه،
فأجابتها، ومضت على استحياء تتمايل كالغصن، وتقوم المرزب دونها
وتسلب النفوس (٢٠) :

ان التي سفكت دمى بجفونها
لم تدر ان دمى الذي تتقلدُ
قالت وقد رأت اصفراري من به
وتنهدت فأجبتها المنتهدُ
فمضت وقد صبغ الحياء بياضها
لوني كما صبغ اللجين العسجدُ
فرأيت قرن الشمس في قمر الدجى
متأوداً غصن به يتأودُ
عدويةً بدريئةً من دونها
سلبُ النفوس ونارُ حربٍ توقدُ

ويحدثنا عن شامية طالما خلا بها، قبلت ناظره وكأنها تقبل فمها لأنها
تبصر نفسها فيه، وهي ذات عينين لا ترجى سلامة من دعت فؤاده
بنظراتها (٢١) :

شاميةً طالما خلوتُ بها
تبصر في ناظري مِحيَاهُ
فقبلت ناظري تغالطني
وانما قبلت به فاهُ
كلُّ جريحٍ ترجى سلامته
الا فؤاداً دهنه عيناهُ
وعن أخرى تقدم اليها بشفاعة لا ترد (٢٣) :

وغضبي من الإدلال سكرى من الصبا
شفعتُ اليها من شبابي بريز
ويصبح الفراق عنده اسوأ من الموت (٢٣) :

اني لأجبنُ من فراقِ أحبتي
وتحسُّ نفسي بالحمام فأشجى
فالفراق مر شديد تعلق نيرانه بالكبود وتقتل الصبابة العاشقين (٢٤) :

فواحسرتا ما أمرَّ الفراق
وأعلق نيرانه بالكبود
وأغرى الصبابة بالعاشقين
وأقتلها للمحب العمير
وألهج نفسي بغير الخنساء

بجب ذوات اللمى والنهد
وتحيا في نفسه ذكريات دائمة وجروح لا تندمل وحب لا يشفى .
ويسعد حين يجدد له الهوى تلك الذكريات وان كان الحنين اليها يحضه
الصخر، وحين تمنعه أطياف الماضي من النوم يجد لذة في الليالي الطويلة .
ويرى كل شيء في الدنيا حسناً، ويتحول القلام وهو نبت كربه الى ورد
حين يرعاه سرب الحبيبة التي تحيا في إهابه ولا تفارقه، واليأس منها وعد

ووصال، وكأنها على بعدها حاضرة تمسح مدامعه وتعقب رائحتها في
اثوابه، فهل يمكن ان نعد هذا وذاك ضربا من التقليد والمحاكاة؟ ام أننا
نحس بأن الشاعر عاشق صادق، وان هذه التي خلفت في نفسه لوعة
وحسرة امرأة حقيقية^(٢٥) :

أسرُّ بتجديد الهوى ذكرَ ما مضى
وان كان لا يبقى له الحجر الصلْدُ
سهادُ أتانا منك في العين عندنا
رقاد، وقلام رعى سربكم وردُ
مثلة حتى كأن لم تفارقي
وحتى كأن اليأس من وصلك الوعدُ
وحتى تكادي تمسحين مدامعي
ويعبق في ثوبيّ من ربحك الندُ

وأبي نداء تتضمنه هذه الدعوة؟ وأي حنين طاغ^(٢٦) :

زودينا من حسنِ وجهكِ ما دا م فحسنُ الوجوه حالّ يحولُ
وصلينا نصلكِ في هذه الدن يا فان المقامَ فيها قليلُ
ويجري الحب مجرى الدم في مفاصله ويشغله عما سواه ويذهله عن
الدنيا^(٢٧) :

جری حبُّها مجرى دمي في مفاصلي
فأصبح لي عن كل شغل بها شغلُ
وقد تكامل حسن الحبيبة في ناظره، بعقدها وزينتها وانتظام كلامها
وحلاوة نغرها^(٢٨) :

فتاةٌ تساوى عقدها وكلامها
ومبسمها الدرّي في الحسنِ والنظمِ

وما أكثر حبيباته، يصف أخرى تناهي سكون الحسن في حركاتها،
وكأنها صورة مجسمة له، وليس هناك عذر لمن يراها ويبقى على قيد
الحياة^(٢٩) :

تناهى سكون الحسن في حركاتها
فليس لراءٍ وجهها لم يمت عذراً
ويجب الجمال الحبيبة فيؤثرها بأروع صفاته^(٣٠) :

حبيبٌ كأن الحسن كان يجبه
فآثره أو جار في الحسن قاسمه
وبالرغم من حبه للمجد وللحرب والفروسية فإنه يفضل النساء أحياناً
على السيف^(٣١) :

وكان أطيبَ من سيفي مضاجعةً
أشبه رونقه الغيدُ الأمايلدُ
وإذا لم يكن المتنبى عاشقاً متمرساً، فمن اين هذه الخبرات وهذه النتائج
التي استخلصها من تجاربه؟ بأن أحلى الهوى ما صاحبه شك في الوصل
فيحيا المحب بين الرجاء والانتقاء، فلا يموت بهجر ونسيان او وصال
مضجر دائم^(٣٢) :

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصل ربه
وفي الهجر فهو الدهرَ يرجو ويتقي
ولا عهد للنساء والغدر من شيمتهن، يتطرفن في السخط والرضا
والحقد والحب، ويتيه في فهمهن الرجل الراشد، فهن أغاز تصعب حلولها،
الا ان الحب بالرغم من ذلك باقٍ يشتد مع الزمن، ولا يسلو الشاعر ولا
تهداً لواعجه^(٣٣) :

إذا غدرت حسناءً وفَت بعدها
فمن عهدها ان لا يدوم لها عهدٌ

وان عشقت كانت أشدَّ صبايةً
وان فركت فاذهب فما فرکہا قصدُ
وان حقدت لم يبقَ في قلبها رضا
وان رضيت لم يبقَ في قلبها حقدُ
كذلك اخلاقُ النساءِ وربما
يضل بها الهادي ويخفى بها الرشيدُ
ولكن حباً خامراً القلبَ في الصبا
يزيد على مر الزمان ويشتدُ
وبعض خيبات في الحب تدفعه الى الشكوى من النساء وهجومهن (٣٤) :

ومن خبر الغواني فالغواني
ضياءً في بسواطنه ظلامُ
ويرى الدنيا خؤوناً كمومس، ولكن موقفه المعادي للمرأة لا يستقيم
ضدّاً لما حفل به شعره من مديحها، ويختلط الحدس بالواقع، ونرجح ان
للنساء شأناً كبيراً في حياته، حاول ان يتستر عليه وان يكون فيه حذراً.

ويجلبو لبعض الكتاب أن يعتقدوا أن المتنبى كان يحب خولة، اخت
سيف الدولة، وان أبا فراس، ابن عمها، كان يمقته لذلك، ولا نملك ادلة
مقنعة، وكيف يجبها الشاعر وحوها بنو حدان؟، وكيف التقاها وهو يقول
في رثائها: « قد كان كل حجاب دون رؤيتها » (٣٥) ؟ وهل يمكن ان يقع
المتنبى في حبها فيغامر بمواقعه في حلب التي هيأت له الرفعة ووطأت له
خطوات اخرى في دروب المجد، يهون لديها حب امرأة؟

يقول في احدى قصائده لكافور أنه بعد ارتحاله من حلب خلف أناساً
يبكون فراقه، منهم رجال ونساء، ولكنه ينفي ان تكون النسوة اللاتي
أسفن على فراقه ذوات تأثير فيه وان الذي يهيمه حقا هو موقف سيف
الدولة منه (٣٦) :

رحلتُ فكم باكٍ بأجفانِ شادينِ
عليَّ ومِ باكٍ بأجفانِ ضيفِ
وما ربةُ القرطِ المليحِ مكانُهُ
بأجزعٍ من ربِ الحسامِ المصممِ
فلو كان ما بي من حبيبٍ مقنعِ
عذرتُ ولكن من حبيبٍ معممِ

ولا يخص بهذه الابيات امرأة معينة، ولو كان يجب خولة لبان هذا الحب في رثائه لها، ولكننا نجد حزناً صادقاً يشارك به اخاها، ويطري اخلاقها الحميدة وعفتها ورفعة نوازعها، ولا يمكن ان نخرج من هذين البيتين بحب او عشق، فهي جزء من تعبير شعري تحتمة كتابة قصيدة رثاء يحاول ان يكون فيها متميزاً^(٣٧) :

فليت طالعةُ الشمسين غائبةً
وليت غائبةُ الشمسين لم تغيبِ
وليت عينَ التي آبَ النهارُ بها
فداءً عينَ التي زالت ولم تؤبِ

وقامت مقارنة بين رثائه لها ورثائه لأختها من قبل: « فلو لم يكن لخولة اثر ايجابي في نفسه او لاختها أثر سلبي لما اقدم على المفاضلة بينهما في محفل العزاء... فهو لم يقف عند الصغرى حيناً رثاها وقفته عند ذكر مناقب اختها»^(٣٨)، وهذا الرأي ذهب اليه محمود محمد شاكر، من قبل، بأن المتنبّي قد احب خولة فعلاً، بمقارنة رثائه لأخت سيف الدولة الصغرى وذكرها في بيتين، ورثائه لخولة وذكرها في ٣١ بيتاً، ويرى: « ان كلامه هذا ليس كلام شاعر يرثي أخت صديقه واميره وانما هو كلام قلب محب مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجعت المنية فيه»^(٣٩)، ويجهد مارون عبود في اثبات ذلك الحب ليخالف ما ذهب اليه طه حسين حين

نفاه: « لماذا لا تحب ست الناس اشعر الناس؟ فهو نجي اخيها وناموسه
ولسانه وسميره، وماذا تريد خولة بعد؟ ليت الحظ اسعد أخت امير
السيف بزفافها الى أمير القلم، لنبارك لها بهذا العريس الفذ، ولكن ان اراد
سيف الدولة فأبو فراس الحسود وابو العشائر الكنود لا يريدان، وما قدر
كان»^(٤٠)، ويدعم رأيه بما يثير لديه شكاً قوياً مما حدث بين المتنبّي وسيف
الدولة من قطيعة! ويجد في هذا البيت:

ولا ذكرت جيلاً من صنائعها
الا بكيت ولا ودّ بلا سبب

عاطفة حاول الشاعر اخفاءها فأبت الا ان تمد اذنيها، ثم يعلل الحنين
الدائم الى سيف الدولة بمجه لخولة ويراهها وراء محاولة اغتياله في حلب^(٤١).

ولكن المتنبّي رثى اخت سيف الدولة الصغرى قبل رثائه لخولة بشافي
سنوات، وحين كان في حلب، يمارس المديح والرثاء، أمراً لا مفر منه،
ولا دخل لمشاعره الحقيقية فيه، ونرى ذلك في رثائه لأُم سيف الدولة^(٤٢)،
الا ان خولة ماتت بعد رحلته الى مصر وعودته الى العراق، وخيبة آماله
في السلطة، وابتعاده عن سيف الدولة، ومحاولة كثير من رجال وادباء
العصر في العراق وغيره الانتقاص منه، مما أثار شجونه واعاد له ذكرياته
في حلب فجاءت قصيدته خيراً من الاولى واكثر شاعرية وقوة وتعبيراً عن
ألم دفين، ولأن خولة كانت امرأة ذات مكانة عالية، لها أيادٍ على الشاعر،
وهذا لا يعني ان يكون بينها حب خالد، ولا نستطيع ان نتخذ من
طريقته في مرثية معينة قاعدة يجب ان يتبعها في مرثية اخرى بعد سنوات
عديدة، اما ما حدث بين الشاعر والامير وبينه وآل حمدان فنميل الى
تفسيره بشخصيته المتميزة وطموحه وصراحته وجراته وجفائه وطبقة الحساد
الذين أحاطوا به^(٤٣).

- (١) مارون عبود، الرؤوس، ط ٣، بيروت ١٩٦٧، ص ١١٩ .
- (٢) - (٦) الديوان، ج ٤، ص ٢٨، ٣٦. ج ٣، ص ٣٢٧. ج ١، ص ١٨٩ .
- (٧) الرؤوس ٢٧٨. والديوان ١ - ٢٦٩ .
- (٨) - (١١) الديوان، ج ١، ص ١٩٣. ج ٤، ص ٧٥، ٣٧. ج ٣، ص ٢١ .
- (١٢) الصبح المنبي ٩٤. والديوان ١ - ٢٩٦ .
- (١٣) - (٣٧) الديوان، ج ١، ص ٣١٣ وما بعدها، ١٢٣، ٢٤٥، ٢٦٨، ١٩٢، ١٦٠، ١١٢، ٢٢٨. ج ٤، ص ٢٧٠. ج ٢، ص ٢٦٩. ج ١، ص ٣٤٢. ج ٢، ص ٣. ج ٣، ص ١٤٩، ١٨١. ج ٤، ص ٤٩. ج ٢، ص ٢٤٤. ج ٣، ص ٣٣١. ج ٢، ص ٤٠، ٣٠٥، ٣. ج ٤، ص ٧٢. ج ١، ص ٩٢. ج ٤، ص ١٣٤. ج ١، ص ٩١ .
- (٣٨) سهيل عثمان ومنير كنعان، المحصول الفكري للمنتبي، بيروت ١٩٦٩، ص ١٩٨ .
- (٣٩) شاكر ١٣٠ .
- (٤٠) الرؤوس ٢٢٩ .
- (٤١) المصدر السابق ٢٢٨ وما بعدها .
- (٤٢) الديوان ٣ - ٨ .
- (٤٣) يدرس د. عناد غزوان اسماعيل في المراثة الغزلية في الشعر العربي، بغداد ١٩٧٤، ص ٥٨ وما بعدها، مراثية المنتبي في خولة ويرى انها تتضمن ما يؤكد حبه لها .

غرابة المتنبي

تكمن غرابة المتنبي في تميزه وتمرده على تقاليد عصره، ونزعة تطغى على افعاله، بادعاء الكمال ورفض النقص والضعف عند البشر، والبحث عن الانسان الامثل، وتمجيد القوة والبطش، وتحقيق الاماني المعقولة وغير المعقولة بالسيف، واختلاط الحلم بالواقع والظل بالاصل، ومحاولة خلق العالم من جديد على نحو يهيء له ان يتربع على عرشه جليلاً، وقلقه وشعوره بانه مطارّد دوماً، ويحيط به الاعداء والحساد، وحيثه امام أَلغاز هذا الكون الذي لم يجده كما يجب، طوع يديه ورهن اشارته، وعبداً لكلماته الشعرية ورغباته الشخصية، والعذاب الفكري الذي عاناه في رحلته الدائمة، وعلاقاته مع الممدوحين ورجال الحكم، واحساسه باندحار الانسان المعاصر، وانعكاس ذلك في ارادة الانتصار والتفوق الشخصي بما يتجاوز طقوس العظمة والابهة المعهودة بين البشر وبتطلعات لا حدود لها ولا اطار، للوعي والاختيار فيها نصيب، غذاها الشاعر بهواجسه وأمدّها بما يزيدّها تعقيداً ومرارة^(١) :

أنا في أمةٍ تداركها الله غريبٌ كصالحٍ في ثمودٍ
ويقوم صراع في نفسه وتتشابك هذه النوازع جميعاً وتصاحبها حية مستمرة بما لا يستطيع تحقيقه فيرضى بان يكون من حكام عصره، دون ان يدري بان امجاده الشعرية، وما فرضت من شهرة وخلود، تهون

عندها وتصغر وتتضاءل تلك الشهوة الشخصية الخاصة بالتسلط والسيادة وتبدو له الحياة مضيئة متعبة فيكثر من الصخب والشكوى، ويهدد ويتوعد، ولا تدرج آماله في جو طبيعي قائم على ركيزة فلسفية تتحد بعطاء انساني ينتج عنه موقف ثابت واحد في كل الظروف والاقوات، ولا تنفعه حكمه، ويتم الانفصال بينه وبين الآخرين، وتصبح حياته هروباً دائماً متواصلًا ومنفى متنقلاً، ولا يجد لتبديد طاقاته الكامنة المتضاربة غير الشعر^(٢):

ولكن قلباً بين جنبيّ ما له

مدى ينتهي بي في مرادٍ أحده
وكأني بالشاعر يولد طفلاً، لأم هي البشرية، اراد بتيه ودلال وخيلاء ان تلبي حاجاته وان تحقق طلباته وطموحه وان تهنيء له ما يريد، عدته موهبته الشعرية. ولم تفعل، همومها الحقيقية الكثيرة شغلته عنه، وبقي يصخب بآماله التي لم تتجسد واقعاً يبعد عنه الاغتراب، والشكوى من صروف الدهر التي حاربتة ووقف عاجزاً بازاءها، والزمن الخزون الذي كاد له ولم يخضب هامته بسيفه^(٣).

ويترك بلدته، في مطلع شبابه، ويسيح فيما يعرف من بقاع الارض، ويشور ليملاً الدنيا عدلاً، ويسجن، وتطول رحلته ولا يهدأ عنفوانه^(٤):

تغـرب لا مستعظماً غير نفسه

ولا قابلاً الا لخالقه
ولا سالكاً الا فؤاد عجاجة
ولا واجداً الا للمكرمة طعما
يقولون لي ما انت في كل بلدة
وما تبغني، ما ابتغي جل ان يُسمى
كأن بنهم عالمون بأنني
جلوب اليهم من معانده اليتما

ويوغل في الغربة، ويبكي معها احبابه، ويحن الى أهله، ويهوى لقاءهم^(٥) :

يصاحكُ في ذا العيد كلَّ حبيبه
حذائي وابكي من أحبُّ وأندبُ
أحنُّ الى أهلي وأهوى لقاءهم
واين من المشتاقِ عنقاء مغربُ
وكل امرئ يولي الجميلَ محببُ
وكلُّ مكانٍ ينبتُ العزَّ طيبُ

ولكن ذلك المكان يجفوه، ويتطلع اليه ولا يجده، والانسان الذي يولي الجميل لا تعرفه غير الاحلام، ويعوض الشاعر عن هذا وذاك بأعز مكان وخير جليس^(٦) :

أعزُّ مكانٍ في الدنا سرجُ سابحٍ
وخيرُ جليسٍ في الحياةِ كتابُ

بعد ان وجد نفسه غريبا اينما توجه وسار^(٧) :

مغاني الشعب طيباً في المغاني
بمنزلةِ الربيعِ من الزمانِ
ولكن الفتى العرِّيَّ فيها
غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

فيدعو الى التوحيدِ الكلي^(٨) :

ذرائي والفلالة بلا دليـلٍ
ووجهي والهجيرَ بلا لثامِ
ويستغني عن الاوطان ومن فيها، ولا يحن الى مكان يغادره، ويصدى ويرفض ان يبدي الى الماء حاجة^(٩) :

غني عن الاوطان لا يستفـزني
الى بلدٍ سافرتُ عنه ايبابُ
واصدىُ فلا أبدي الى الماء حاجةً
وللشمس فوقَ العملات لعابُ

وتعزله غربته عن الآخرين، ويقع في وهدة الصلف والتعالي والتفاني في
تثمين الذات وتأكيدها وتضخيمها، واحتقار الناس، وكأنه يرتفع
باخفاضهم وينتصر باندحارهم، في معادلة غير متوازنة، ابتدعها الشاعر ولم
يهنأ بها، ولم تؤد به غربته ان يتبعد عن ذاته أو يحاول نسيانها احياناً او
يديم التفكير فيما هو خارج عنها تلهية بوسائل لا حصر لها أوجدتها البشرية
هروباً من ان تكون الذات محور الاشياء جميعاً فلم يجد الشاعر من ينقذه
من ذاته أو يبعده عنها قليلا، وظل وحيداً نائياً بنفسه عن الجموع، معتزاً
بتفرده وعالمه الخاص^(١٠) :

بم التعللُ لا أهـلّ ولا وطنُ
ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ
أريدُ من زمني ذا أن يبلغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ
مما أضرَّ بأهلِ العشق أنهم
هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا
تفنى عيونهمُ دمعاً وانفسهم
في إثر كلِّ فيبحٍ وجههُ حسنُ
تحملوا حملتكم كلُّ ناجيةٍ
فكلُّ بينِ عليٍّ اليوم مؤتمنُ
ما في هوادجكم من مهجتي ثمنُ
ان متُّ شوقاً ولا فيها لها ثمنُ

ويحمل معه في اغترابه نقيضه الاكبر، طموحه غير المحدود، ويعتمد في تحقيقه على المال والسيف والشعر، وتكدست الاموال، ولم تجد، وتبددت في مقتله، وكان للسيف عنده صولة وجولة، ولكنه لا يغطي ابعاد ذلك الطموح وحده، وبقي الشعر واوقعه في اغتراب جديد وذل لدى المدوحين وخضوع لامزجتهم المختلفة: « اني ملقى من هؤلاء الملوك، اقصد الواحد بعد الواحد، وأملكهم شيئاً يبقى ببقاء النيرين، ويعطونني عرضاً فانياً. ولي ضجرات واختيارات فيعوقوني عن مرادي فاحتاج الى مفارقتهم على اقبح الوجوه»^(١١). ولكن، أترك المديح ويترفع عنه ويرذله^(١٢):

أبا سعيدٍ جنبِ العتابا فرب رائي خطأ صوابا
فانهم قد أكثروا الحجابا واستوقفوا لردنا البوابا
وان حدَّ الصارمِ القرضابا والذابلاتِ السمرُ والعرابا
يرفع فيما بيننا الحجابا

واذا ترك المديح فمن سيدركه، اذن، من أبناء عصره باعجاب؟ وان خلدته العصور الاخرى، فما قيمة ذلك اذا افتقده في حياته؟ كيف يمكنه الشعر بلا أماديح ان يعرف سيف الدولة والآخريين؟ ان يرتاد قصور الملوك والامراء، ان يخوض حروباً وغزوات، ان يفخر بنفسه وان يعرف العالم؟! ومن سيأتي اليه في زاوية ما منسية، يحفظ اشعاره الذاتية الخاصة ويذيعها بين الناس؟ واين الجاه والمال والنفوذ؟ فيمدح سيف الدولة ويشير الحساد والمناوئين، ويشيد بمحاسن كافور ويطلب ولاية، ويترفع عن مدح آخريين فتؤلف في مساوئه ومثالبه الحقيقية والمتوهمة، الشخصية والشعرية، الكتب والبحوث، وتصدح المجالس الادبية بأخباره واشعاره، ويسهر الخلق ويختصمون؟ لم يكن امامه سوى المديح، وارتضى ذلك ووقع في محنة اغترابه الجديد: خضوعه للممدوحين واهوائهم ورغباتهم، وانفصاله عنهم واقعاً وشعراً وانسانية. ومهما فخر وتمدح وامتنع عن الانشاد واقعاً فانه

يبقى عندهم شاعراً مداحاً ووسيلةً للشهرة والدعاية والخلود، لقاء مال
وثنم وكان يعرف ذلك ويتعبه^(١٣) :

شراً البلاد مكان لا صديق به
وشراً ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتي قنص
شهب البزاة سواء فيه والرخم

وحدث الانفصال بينه وبين ممدوحيه، فعرض بهم وأهانهم أحياناً وفخر
بنفسه، وبينه وبين واقعه مداحاً، فوضع لنفسه قيماً، ولم يتفق معه العالم،
وبينه وبين الشعراء الذين خبت جذوتهم بأنواره، وقام الأعداء والمنائون
يغتالون موهبته ويزعجونه فاحس بمرارة ولوعة وغربة إنسان لا يستطيع إلا
ان يكون وحيداً^(١٤) :

أهمُّ بشيء والليالي كأنها
تطارديني عن كونه واطاردُ
وحيدٌ من الخلان في كل بلد
إذا عظم المطلوب قلَّ المساعدُ

ان ارتباطه في حياته بشخصين، هما جدته وممدوحه سيف الدولة،
بالرغم من جفائه وخذلانه، لا يكفي لتكوين علاقات إنسانية طبيعية بينه
وبين الناس^(١٥) :

وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغامُ

وافقده طموحه وطاقته الهائلة وولعه بالمجد ان يروي اغترابه وانفصاله
وانفصامه بود حقيقي يمنحه الأهل او يضيفي عليه الوطن ظلاً من الطمأنينة
والسعادة والقناعة^(١٦) :

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني
ان النفسَ غريباً حيثما كانا
ولم يتعبه شيء كتطلعه الى الكمال، وعجزه عنه، وايغال عقدة الالوهية
في ذاته (١٧) :

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً
كنقص القادريين على التمام
فهل يمكن ان يزول اغترابه، لو ادعى الشاعر النبوة حقاً، وآمن به
كثيرون حتى يؤمن هو بنفسه (١٨) :

ما مقامي بأرضٍ نخلّة الا
كمقام المسيح بين اليهود
مفرشي سهوة الحصان ولكن
قميصي مرودة من حديد
وهل يزول اغترابه، لو جمع اموال الدنيا، أو حصل على ولاية واتسعت
آماله وامتد نفوذه الى بلاد شاسعة واصبح من أمراء عصره وقواده،
وخاض الحروب والغزوات منتصراً، فتوجته أكاليل الغار؟ ام كان هذا
وذاك عذرا لتبديد طاقة الاغتراب في نفسه، والهروب من ذاته، والبحث
عن موازنة بين الواقع والطموح، وبين المثال والتحول، وبين الحلم
والحقيقة!؟

-
- (١) - (١٠) الديوان، ج ١، ص ٣٢٢. ج ٢، ص ٢٣. ج ٤، ص ٤٥، ١٠٧. ج ١،
ص ١٨٣، ١٩٣. ج ٤، ص ١٤٣، ٢٥١. ج ١، ص ١٩١. ج ٤، ص ٢٣٣.
(١١) خزنة الادب ٢ - ٣١٣.
(١٢) - (١٨) الديوان، ج ١، ص ١٠٥. ج ٣، ص ٣٧٣. ج ١، ص ٢٧٠. ج ٤، ص ٧٠،
٢٣٣، ١٤٥. ج ١، ص ٣١٩.

الفهرس

٥	مقدمة
٩	المتنبى والنقد الأدي
١٧	المتنبى وحاسدوه
٥١	المتنبى والحكمة
٦٧	رثاء الانسان
٧٥	صفات السيف والنزعة الحربية في شعر المتنبى
٨٧	المتنبى وكافور
١٠١	الشاعر والمرأة
١١٧	غربة المتنبى

من كتب المؤلف

الشعر العراقي الحديث - مرحلة وتطور
منشورات دار صادر - ط ١ ، بيروت ١٩٧٠ ، ط ٢ ، دار الرائد
العربي - بيروت ١٩٨٧ .

التكسب بالشعر
منشورات دار الآداب - بيروت ١٩٧٠
الشعر والزمن
منشورات وزارة الاعلام - بغداد ١٩٧٥
الاصول الدرامية في الشعر العربي
منشورات وزارة الاعلام - بغداد ١٩٨٢

احد الصافي النجفي (ظاهرة شعرية وعالم حر)
دار الرائد العربي - بيروت ١٩٨٧
دراسات في النقد والأدب
دار الرائد العربي - بيروت ١٩٨٧

